مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة



ما وراء الطبيعة

79

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الثانى)

د. أحمد خالد توفيق

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والإثارة

12/1/013

د. أحمد خالد توفيق

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الثانى)

كان الكتيب السابق كئيبًا بالتأكيد ، فهو يحكى الحلقة الأخيرة فى الصراع الدامى بينى وبين د. لوسيفر الذى لم يعد لطيفًا ولا ودودًا ، وبالتأكيد لم يعد بى يسعد أو لى قلبه يطرب ... لقد مل الرجل هذا الصراع الطويل .. هذه هى اللحظة التى ينهى فيها القط عبثه الطويل مع الفأر ، ويقرر أن يختم القصة هنا والآن .. إن لوسيفر يريد كتاب الأسرار . هذا جميل وقد نقبله ، لكن محاولات كولبى الأحمق قد جاءت لعالمنا بمصيبة أخرى هى ألستير كراولى الذى اعتبره معاصروه الشيطان ذاته .. هكذا تجد أن هناك وحشين يبحثان عنى ..

العدد القادم

أسطورة الأساطير

الثمن فى مصر 500

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم





79

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حامل الضياء

(الجـزء الثانى)

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــــات تحبس الأنفـــــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقـل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ت : 26823792 ـ 25908455 ـ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ـ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ ت : 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

79

•

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الثانى)

بقلم : د. أحمد خالد توفيق

الغـلاف بريشــة : أ. أيمـن القـاضى



المقدمة

كان الكتيب السابق كئيبًا بالتأكيد ، فهو يحكى الحلقة الأخيرة فى الصراع الدامى بينى وبين د. لوسيفر الذى لم يعد لطيفًا ولا ودودًا ، وبالتأكيد لم يعد بى يسعد أو لى قلبه يطرب ...

لقد مل الرجل هذا الصراع الطويل .. هذه هى اللحظة التى ينهى فيها القط عبثه الطويل مع الفأر ويقرر أن ينهى القصة هنا والآن ..

إن لوسيفر يريد كتاب الأسرار . هذا جميل وقد نقبله ، لكن محاولات كولبى الأحمق قد جاءت لعالمنا بمصيبة أخرى هى ألستير كراولى الذى اعتبره معاصروه الشيطان ذاته ..

هكذا تجد أن هناك وحشين يبحثان عنى ..

الطريقة التى وجدتها هى أن أفقد الذاكرة تمامًا وأتوارى فى موضع بعيد .. لا أحد يعرف أين أنا .. لا أحد يعرف من أنا .. وأنا لا أعرف أين الكتاب ..

لا تتحدث من فضلك عـن قـوة الإرادة وصلابة الأبطال مع لوسيفر .. إنه قادر على إذابة إرادتك تمامًا ... وبالتأكيد يستطيع معرفة ما يريد منى ..

هذه طريقة ممتازة للاختفاء كما ترى ، أما لماذا أصر على أن يكون الكتاب معى فلأنه ثمن حياتى ، ومن دونه ليس لحياتى ثمن من أى نوع ... فى اللحظة التى يحصل فيها لوسيفر على الكتاب سوف يحولنى إلى بخار ، أو يعلق رأسى فى قاعة الجلوس فى بيته الجحيمى ..

الكتـاب مخيف كما هـو واضح .. كان مخفيًا فى مكان ما بفلسطين ، تحرسه الأفاعى ويبدو أن هناك ملاك خير ساعد كولبى على الظفر به ..

الآن أنت تعرف ما أعرفه .. وتعرف أين يوجد كل واحد من أبطال هذه القصة ..

لا أرى داعيًا للانتظار أكثر ، فلنتحرك ....

لوسيفر : الملاك الذى طُرد من السماء لأنه حاول التمـــرد . الشيطان . كوكب فينوس عندما يظهر كنجم الصباح . ثقاب يشتعل بالاحتكاك . من اللاتينية : نجم النهار ــ حامل الضياء .

(قامـوس التـراث الأمـريكى) (قواميس أكسفورد)

سيدة فاضلة

-1-

قريبتى مها تعيش وحدها مع ابنتها فايزة فى تلك البناية كما قلت لك . فى المعادى أو جاردن سيتى أو الزمالك ... أو ... لن أحدد ..

مطلقة هى منذ عامين .. وهى تعرف أن هذا قد يجعلها مطمعًا للجميع ..

أنت تعرف مها بالتأكيد .. لابد أنك رأيتها معى ذات مرة .. أولاً لابد أن تلاحظ الذعر فى عينيها المتسعتين مع حركة البلع المستمرة فى عنقها .. لكن هذا لا يجعلها ضفدعة بل يجعلها أقرب لدودة البلاناريا .. هاتان العينان تجعلان من المستحيل عليك ـ ولو كنت رافائيل نفسه ـ أن تعرف إن كانت هذه السيدة جميلة أم قبيحة .. رشيقة أم بدينة .. إنها مذعورة وذعرها يجعل قلبك يفلت عدة ضربات ..

هاتان العينان تنظران للعالم فى رعب ، وحياتها كلها نوع من الوسواس القهرى .. كل شىء محصن كما قلت ، لكن كلامها الذى لا يتوقف عن الشرف وكلام الناس وحاجتها لأن تعيش بعيدًا عن الأقاويل .. إلخ .. كل هذا يدل على أنها تعانى حرمانًا عاطفيًّا شديدًا ..

مثلاً يطلب منها البواب إيجار البيت فتقول :

ـ « أنا لا أعرف .. أنا لا أخرج أبدًا .. »

تأتيها فاتورة الهاتف فتؤكد :

ـ « لا أحد يكلمنى بالهاتف ولا أطلب أحدًا .. »

وهى تحرص حرصًا بالغًا على مراقبة التلفزيون أثناء مشاهدة ابنتها له . هناك لقطات من الخير لها أن تمر فى صمت ، بينما التركيز عليها يبرزها ..

مثلاً يمشى كمال الشناوى مع شادية فى حديقة متشابكى الأيدى ، فتصرخ :

ـ « لماذا تمشى معه وهما غير متزوجين ؟ »

تقول ابنتها وهى تلف شعرها حول الرولو :

ـ « إنهما متحابان يا ماما .. »

فتقذف أداة تقوير الكوسة فى عصبية وتصيح :

ـ « متحابان ؟... وهل هذا مبرر لتمسك بيده ؟.. فتيات رقيعات !! »

ثم تقرر أن تغلق التلفزيون لأنهم لم يعودوا يقدمون أشياء محترمة ...

مها موظفة فى جهة ما من تلك الجهات التى يستحيل أن تتذكر اسمها ، ولو ذهبت هناك فلن تحقق أى مصلحة من أى نوع .. مهنة لا لزوم لها على الإطلاق لكنها تمنحها جنيهات تضمها لما يدره المصرف وتنفق على البيت ..

أما ابنتها فكارثة حقيقية .. مراهقة على شىء من الجمال ، وهى مصرة على أن تبرز هذا الجمال وأن يراه الجميع .. ابنتها

تعشق سماع الأغانى ومشاهدة الأفلام . فاشلة دراسيًّا تمامًا ولا تجيد أعمال المطبخ ولا تنظف فراشها ..

هكذا تحولت فايزة ـ الابنة ـ إلى كارثة حقيقية .. ربما تقرر مها فى يوم ما أن تهشم رأسها بيد الهاون الموضوع على النيش فى الصالة ، لكن حتى ذلك الحين لابد أن تصبر ، وأن تتذكر أن ابنتها هى سلواها الوحيدة فى العالم حاليًّا . إن لها أقارب بالطبع ولها إخوة لكن شخصيتها العصابية جعلتها تتشاجر مع الجميع ، دعك أنهم جميعًا كانوا ضد الطلاق .. أرادوا أن تخضع لزوجها وتلثم قدميه وتتوسل له كى يخونها . لكنها رفضت .. هكذا قال لها أخواها إنهما لن يأتيا لدارها أبدًا ..

لا شك أن فايزة تكرهها كذلك .. مها متأكدة من ذلك .. لا يمكن أن تتوقع أن السجين يحب السجان فى سجن طرة وإلا فأنت أحمق .

عندما تتلقى الفتاة مكالمة هاتفية فإنها تهرع لغرفتها وتغلق الباب ، لكنها تستطيع أن ترى ظل والدتها بالخارج تحاول أن

تلتقط أى كلمة .. تعرف مها أن المتصل غالبًا شاب رقيع يطيل شعره .. يمكنها أن تراه وأن ترى قميصه المشجر والسلسلة اللعينة على صدره المشعر ..

لابد أنه يقول لابنتها :

ـ « حبنا يا فايزة أقوى من شىء .. يجب أن تهربى معى .. »

ستقول له :

ـ « لا أستطيع ترك أمى .. »

فيقول لها :

ـ « أمك عاشت حياتها وليس من واجبها أن تعيش حياتنا أيضًا .. »

سوف يعبث الوغد ويوسوس فى أذنها ، ولسوف تجمع الفتاة حاجياتها وتفر ذات ليلة .. لهذا هى تصغى فى كل مرة وتحاول معرفة الوقت الذى ستفر فيه ابنتها ..

لنفس السبب هى لا تنام تقريبًا .. عندما تنام ليلاً كفرس النهر سوف تتسلل ابنتها فارة ، أو يتسلل للشقة مجموعة من السفاحين يحملون السيوف لذبحها ..

أحيانًا تفكر فى الزواج .. لكن لا أحد يتقدم لها. ولو تقدم لها أحد فلسوف يكون وغدًا عابثًا مثل زوجها السابق ..

لا .. لن تكرر هذا السيناريو ..

كانت تؤمن أنها قادرة على السيطرة على كل شىء ، ما دام ذلك الوغد ـ التلفزيون ـ مغلقًا .. جهاز إفساد البنات اللعين الذى يوسوس فى أذهانهن أربعًا وعشرين ساعة .. فى الماضى كانت هناك قيم وكانت الأفلام محترمة .. بصراحة هى لا تذكر متى رأت أى فيلم محترم سوى فيلم (الهروب الكبير) لأن كل ممثليه رجال بلا امرأة واحدة ، لكنها متأكدة من أن الأفلام كانت محترمة .

هكذا كانت مها تعيش حياة منتظمة غير سعيدة ، حتى ظهرت أنا ..

هى لا تعرف سبب هذه الزيارة ، لكنها بالتأكيد تذكرت أننى متقدم فى العمر وأننى غير متزوج .. وأننى طبيب فلابد أننى أكسب الملايين ولا أبددها ..

ربما فكرت فى الزواج منى .. ربما .. لا أستطيع أن أؤكد أو أنفى ..

ما كان يهمنى فى القصة هو ذلك الكتاب ..

قلت لها إننى لا أفكر فيها وأتذكرها بصعوبة .. هذا يجعلها من أنسب الأشخاص للاحتفاظ بالكتاب اللعين الذى يأبى أن يحترق ..

كانت هى قد سمعت عنى كثيرًا وتعرف من أوساط الأسرة أننى .. البعض قال لها إننى عبقرى والبعض قال إننى مخبول ومشعوذ ...

على كل حال بدا واضحًا أن الكتاب يدخل هذه الدائرة اللعينة التى أعيش فيها ، وقد قبلت أن تأخذه .. وفكرت فى وضعه فى الموقد القديم .. هناك تلك المواقد العتيقة التى كانت تعمل

بالسولار وتتصل بكرة زجاجية تخرج منها ماسورة تغذى النار.. كان عندها واحد وبدا لها مناسبًا ، لكنى كما رأى القارئ ، طلبت منها أن تضعه فى مكان لا أعرفه ولا أقدر على تخمينه ..

طبعًا هو الموقد القديم ..

ليس لديها خيال ولا تستطيع التفكير فى شىء أفضل ..

راحت تقلب الصفحات محاولة فهم أى شىء من تلك الرموز الشيطانية لكن الأمر كان مستحيلاً .. يبدو أن رفعت هذا عبقرى فعلاً إذ يفهم هذا ..

فكرت طويلاً ثم تذكرت ..

فى الشرفة هناك قفص عصافير كبير تربى فيه مجموعة من تلك الطيور الملونة. لديها كذلك سلحفاة وقط كما تعلم .. فى قفص العصافير هناك لوح خشب على الأرضية. هكذا لفت الكتاب المغلف بالكتان فى كيس من البلاستيك ثم فتحت القفص بحذر فراحت الطيور تصرخ وتطير مصطدمة بالسلك ونقرها ببغاء

ملون بقسوة فى أناملها. رفعت اللوح الخشبى المغطى بفضلات الطيور ودست الكيس تحته ثم أعادت كل شىء كما كان ..

لو جاءت هنا كتيبة تفتيش فلن تفكر فى القفص أو فى أن تبعد الطيور .

أغلقت القفص أخيرًا وراحت تداوى إصبعها ..

يجب أن تنفذ تعليمات رفعت . فمن يدرى ؟ الرجال يحبون المرأة المطيعة .. لكنها كانت ذكية لأنها لم تسمح له بالدخول . لا تريد أن تصير لها سمعة مريبة .

جاءت فايزة من مكان ما .. كالحة بلهاء لا تعرف سوى شعرها وسوى العشاق على الهاتف ..

سألتها فايزة وهى تهرش ظهرها :

ـ « ماذا تفعلين ؟ »

قالت فى صرامة :

ـ « أمانة .. هذه أمور تفوق تفكيرك » .

ـ « إذن فلنأكل .. أنا جائعة » .

تبًّا لها !.. الجوع . الشهية الزائدة وكل هذا يتحول لهرمونات . والهرمونات تجعل السيطرة عليها أصعب .. ليتها ترغمها على الجوع كنساك الصحراء لتضعف ...

والآن سوف تعد الطعام وتراقب فى ذهول فايزة وهى تقذف لجوفها بثلاث بيضات وربع كيلو من الجبن الأبيض وربما عدة ملاعق من الفول. سوف تعد لنفسها شطيرة من العسل بالمربى بعد الأكل ، وسوف تصحو عند منتصف الليل جائعة فتعد لنفسها شطيرة من اللانشون. وهكذا تتحول لوحش قادم من عوالم الأوديسة تستحيل السيطرة عليه ..

إن الغد لأسود ..

* * *

ما حدث فى منتصف الليل يستحق بعض التعليق ..

كانت مها تشعر بظمأ .. ربما بسبب العشاء الدسم الذى تناولته ، لذا نهضت للثلاجة لتشرب ..

هنا خيل لها أنها تسمع صوتًا غريبًا .. هذا الصوت آت من الشرفة بالذات .. أضاءت النور ونظـرت عبـر خَصاص النافذة بحذر .. لم تر شيئًا ، لكنها كانت تعرف تلك المواقف .. دائمًا تكون هناك عصابة كاملة من السفاحين وتذبحها فى كل مرة ..

فى حذر بدأت تفتح الشيش ثم أخرجت رأسها .. ثم بدأت تخرج هى نفسها. الليل المظلم البارد وضوء خافت فى البنايات البعيدة .. الصوت مستمر .. إنه آت من قفص العصافير ..

نظرت داخل القفص فهالها المشهد ...

هناك طائر ملون يقف منتفشًا فاردًا جناحيه كأنه عقاب ، وفى كل صوب كان الريش يتناثر مع الدم والأشلاء .. الحقيقة أن هذا الطائر الوغد مزق كل الطيور الأخرى بمنقاره الذى يقطر دمًا ...

هذا مشهد شنيع لا يوصف وقد هزها كثيرًا ..

حالة جنون أصابت الطيور .. لكن هذا لم يحدث من قبل فما السبب ..

راحت ترتجف وعادت للداخل .. فى الصباح سوف تتخلص من هذه البقايا ومن الطائر نفسه . المهم أن يتم هذا فى النور ...

عادت إلى الغرفة وكادت تغلق الشيش ...

هنا رأت شيئًا جعلها تملأ الدنيا صراخًا وعويلاً ..

لماذا يصرخ الناس بهذه الشراسة عندما يرون ثعبانًا يحاول الدخول من الشرفة ؟.. شىء لا يمكن فهمه ..

راحت تصرخ وتصرخ ولا شك أن الشارع كله كان سيأتى ، لكن ابنتها ظهرت بمنامتها الوردية قادمة من غرفتها .. وبنظرة واحدة رأت الثعبان على باب الشرفة يحاول الدخول ، بينما أمها فى حالة تامة من الغباء ..

تصرفت الفتاة بسرعة .. أغلقت الباب بقوة فانحشر الثعبان بين الضلفتين وارتجف رأسه قليلاً ثم لفظ أنفاسه .. راحت تلهث ، ثم هرعت للحمام فأحضرت ماسك الغسيل الخشبى .. التقطت به الثعبان الميت فطوحت به من الشرفة... ثمة مسكين سوف يجده على سقف سيارته غدًا لكن الوقت ليس وقت اللياقة ...

لماذا يصاب الناس بالذعر عندما يجدون ثعبانًا ميتًا على سقف سيارتهم ؟

كانت الأم مستمرة فى زيادة قلوية دمها ، لكن الفتاة جرتها للداخل وراحت تردد فى أذنها :

ـ « لا إله إلا الله .. اهدئى .. »

ثم قالت وهى تجلب لها كوب ماء بارد :

ـ « هذا ثعبان .. لا نعرف سبب قدومه هنا لكن كل إنسان رأى تجربة كهذه فى حياته .. لقد مات وانتهت القصة .. »

أنت تعرف خوف الناس من الثعابين .. هذا الخوف يوشك على جعلها كائنات فوق الطبيعة .. لو زحف ثعبان على ساقك فأنت تفضل بترها .. إنها تخترق كل شىء وتدخل كل مكان ولا تموت أبدًا ..

أغلقت المرأتان النور وعادتا للداخل وفضلتا أن تبقيا معًا طيلة الليل فى غرفة واحدة ..

كانت نظرية الفتاة فايزة بسيطة جدًّا .. قالتها لأمها وهى تلتهم شطيرة من الحلوى الطحينية :

ـ « الأمر سهل ... الثعبان هو الذى التهم الطيور .. تسلل للقفص فلم ينج سوى طائر واحد توحش .. »

فكرت الأم بدورها :

ـ « ربما شعرت الطيور بالثعبان فجنت .. »

هكذا اتفقتا على أن الحياة منطقية وكل شىء مبرر .. وهذا ما يطلقون عليه اسم (التفكير التواق Wishful thinking) ..

وأخلدتا للنوم وقد احتضنت كل واحدة الأخرى .. لا شىء مثل الثعابين لتقوية الروابط الأسرية وتقريب فجوات الأجيال ..

* * *

بينى وبينك .. لم تكن الأيام التالية أفضل ..

لقد نظفت مها القفص من بقايا العصافير ، وكان الطائر الباقى شرسًا بحق .. لا شك أنه كان منتزعًا عينها لو أعطته الفرصة . فى النهاية قبضت عليه وهو ينقرها بلا توقف وأطلقته فى الهواء .. سوف يتصرف ما دام بهذه الشراسة .. عندما يتعامل المرء كقاطع طريق فعليك أن تمنحه طريقًا يقطعه ..

قررت أن تبقى القفص كما هو لأن فيه تلك الأوراق الخاصة برفعت . كل هذا الهراء ، فهى لا تعرف مكانًا أفضل تضعه فيه ..

الآن دعنى أخبرك بعدة نصائح عندما تحتفظ بكتاب شيطانى كهذا .. النصائح من كتاب آخر على كل حال . فقط عدنى أن تتذكرها جيدًا :

النصيحة رقم 1 : ابحث جيدًا تحت فراشك عن ثعابين ..

هـذه نصـيحة مهمـة ينسـاها الجميع برغم بساطتها .. كل ما عليـك هـو أن تحمـل كشافًا وتجثـو على ركبتيك وتلقى نظـرة تحـت الفـراش . المشـكلة هى أن مها بدينة ولها كرش ممتاز ، مما يجعل الركـوع والنظر تحت الفراش جديرًا بأن يزهق أنفاسها ... لهذا كانت تتجاهل هذا الجزء وتتركه لابنتها .

على أنها فى صباح مشرق كانت تتناول قرصًا من الدواء فانزلق من يدها ليسقط تحت الفراش. هكذا تناولت الكشاف الصغير وركعت على ركبتيها تحت الفراش وهى تصدر أصواتًا جديرة بشخص يموت غرقًا .. هوف .. هاه .. هوف ..

احمر وجهها واحتقنت أوردتها .. راحت تبحث عن القرص. كان ما رأته لا يصدق .. هذا الرأس الصغير بالعينين اللامعتين تنظران لها واللسان القصير المشقوق يتواثب خارجًا وداخلاً. عندما دققت أكثر رأت رأسًا آخر ..

هذه المرة لم يكن هناك كلام عن السمعة وكلام الناس. راحت تطلق الصراخ وتجرى . ابنتها كانت فى المدرسة لذا راحت تصرخ منادية البواب ...

الخلاصة أن اليوم كان فوضى كله ، وجاء بعض الرفاعية وفتشوا البيت بعناية ثم قبضوا على ثلاثة ثعابين وأقسموا أن البيت نظيف .. قالوها بالكبرياء التى يتكلم بها كاهن كاثوليكى فرغ من ممارسة طقوس طرد الأرواح الشريرة ..

ماذا حدث لهذا البيت ؟

ما سر هذا الإغراء الشديد الذى يجذب الثعابين ؟..

لم تعرف قط . وقد أدركت أن الحياة ستكون مستحيلة هنا .. يجب أن تجد بيتًا آخر ، لكن الكلام سهل .. نحن فى مصر .. حتى البيوت المسكونة يقتحمها الناس ويطردون الأشباح. لو كانت الأشباح قابلة للأكل لذبحوها وطبخوها ....

إذن عليها أن تتحمل كلام هؤلاء الرفاعية وتصدقه ، وعليها أن تحيط فراشها بالشيح البابونى بالضبط كما يفعل ضحايا مصاصى الدماء عندما يحيطون أسرتهم بالثوم ..

ترى هل ترى ثعابين أخرى ؟.. نرجو ألا يحدث هذا ..

النصيحة رقم 2 : لا تخرج من غرفتك ليلاً..

هذه نصيحة مهمة جدًّا ولم تكن مها تعرفها ..

فى منتصف ليلة من الليالى خرجت للصالة وكانت تعرف أن النور الخافت هو الشىء الوحيد الذى يقودها للحمام. مشت فى الصالة ولاحظت بشكل عابر أن النور مختلف بعض الشىء ..

هناك أنتريه قديم فى الصالة . أنتريه له طابع الأفلام القديمة لذا كانت تحبه جـدًّا . عندما دققت النظر رأت أن هناك شكلاً يجلس هناك وينتظر ..

شكلاً .. لأنها لا تعرف كنهه بالضبط .. سوى أنه كائن قادر على أن يجلس وأن يضع يده تحت ذقنه.

ارتجفت ووثبت للخلف ، هنا أدار الجالس فى الضوء الخافت وجهه نحوها .. أدركت على الفور أن هذا أبوها. لا مشكلة لولا أن أباها قد مات منذ عشرة أعوام ، وكانت ملامحه مختلفة ..

بالضبط هى الملامح التى ارتسمت عليه فى قناع الموت عندما دخلت الغرفة وألقت نظرة عليه ..

إلا أن الملامح تتبدل ...

لا توجد عين فى الواقع .. هناك تجويف عميق أسود وهناك أسنان ساقطة .. إنه متحلل .. هذه صورة أبيها بعد ما تحلل ...

لولا أنها تدرك يقينًا أنها مستيقظة لحسبت هذا جزءًا من كابوس ..

هنا نظر لها فى ثبات وقال بصوت تعرف أنه صوته :

ــ « تأخرت يا مها .. نحن فى الانتظار ! »

من هم الذين فى الانتظار ؟...

هناك من وراء الستار المؤدى للحمام خرجت جثة متحللة لكن ما زالت بعض الملامح واضحة .. يمكن بسهولة أن تدرك أنها جثة عمها ... فقط هى جثة تتحرك وتضحك .. ربما لا تضحك . كل الجماجم تعطى هذا الانطباع على كل حال ..

لم تنتظر أكثر وفرت لغرفة نومها وأغلقت الباب ..

خلف الباب سقطت أرضًا وفقدت الوعى وعندما استيقظت عرفت ـ لشدة ذعرها ـ أنها أفرغت مثانتها ..

هكذا تعلمت الدرس بالطريقة القاسية .. عليها أن تبقى فى غرفتها ...

النصيحة رقم 3 : لماذا تنامون فرادى ؟

فى الليلة التالية سمعت الصرخة مدوية عالية .. هرعت تجتاز الصالة عالمة أن من يصرخ هو فايزة .. فتحت باب الغرفة الصغيرة ، وكانت غرفة مراهقة تقليدية جدًّا .. الكثير من الدباديب وصور المطربين على الجدران .. بالذات منير وذلك الفتى الذى بدأ يصعد بسرعة عمرو دياب .. هناك الكتكوت الشقى تويتى .. وهناك ....

أين فايزة بالضبط ؟

الصرخة جاءت من هذه الغرفة . لكن أين الفتاة ؟

هنا جاء صوت الفتاة يصرخ فى الفراغ :

ــ « ماما ..!.. أنا هنا ؟ »

ــ « هنا أين ؟ »

جاء صوت الفتاة الباكى :

ــ « أراك وأمد يدى لك لكنى لا ألمسك .. »

ــ « وأنا لا أراك ! »

ما معنى هذا ؟.. نحن نعرف الإجابة وهى أن الفتاة محشورة فى بعد آخر مواز لعالمنا بالضبط .. لا تستطيع الخروج منه لنا لكنها ترانا وتكلمنا. لكن مها لم تقرأ قصة رعب أو خيال علمى فى حياتها لهذا تجد هذا الكلام غريبًا يدل على مجنون ..

ــ « فايزة !.... أنا أمد يدى لك .. »

ــ « وأنا كذلك .. والله العظيم ! »

ــ « ولماذا كنت تصرخين ؟ »

ــ « لأننى أرى الفراش ولا أستطيع لمسه .. أقف أمام المرآة فلا أرى صورتى .. »

ـ « أنت مجنونة .. »

كلا يا سيدتى .. هى ليست مجنونة .. هى فقط فى بعد آخر ..

بعد لحظات من الصراخ فوجئت مها بأن يد ابنتها تلمسها .. ثم بدا أن النصف العلوى للمراهقة يظهر وفى اللحظة التالية كانت الفتاة تتعلق بها كالقرد وتبكى ..

سقطت المرأتان على الأرض باكيتين ..

ما أقسى أن يواجه المرء هذا كله من دون رجل .. يا لقسوة الحياة !... الرجال مفيدون فى هذه الأمور فهم يموتون أولاً أو يجرحون ويعطون المرأة فرصة للفرار.. أما هنا فهذا يخلو من العدل ..

على كل حال قررت مها أنها ستبيت مع فايزة فى نفس الغرفة بدءًا بهذه الليلة .. ليس الوقت مناسبًا لتعليم الفتاة استقلال الشخصية ...

النصيحة رقم 4 : الثلاجة مكان خطر دائمًا ...

أنت تعرف أن فايزة نهمة للطعام جائعة دومًا كديدان القز. ما حدث فى الليلة التالية هو أنها راحت تتضور من فرط الجوع فى الواحدة بعد منتصف الليل ..

قالت أمها لنفسها :

ـ « هى الهرمونات .. كل هذه الهرمونات تحرق الطعام حرقًا .. »

نهضت الفتاة حافية القدمين إلى المطبخ .. فتحت الثلاجة وهى تعرف أن برطمان المربى هناك وهناك رغيف خبز على الموقد . سوف تعد لنفسها شطيرة سريعة لتتمكن من النوم .

هنا دوى صراخها من جديد .. لقد صار هذا مملاً .

أضف لهذا أنه يدلك على سوء توصيل الصوت فى هذه البنايات الجديدة ، ويدلك على التبلد الذى يغلف كل واحد فينا عن جيرانه .. لو حدث هذا فى قرية لكانت القرية كلها تحمل الفئوس والنبابيت وتحيط بمصدر الصرخة ..

من الداخل هرعت مها .. هرعت لتجد ابنتها تتعلق بباب الثلاجة صارخة . كانت تحاول التماسك حتى لا يجذبها

شىء ما للداخل . عندما أضاءت مها النور رأت أن هناك يدين تشدان الفتاة للداخل بالفعل .. يدين تخرجان من داخل الثلاجة . إن من يشد ابنتها موجود بالداخل !... لكنها لا تراه ولا تفهم كنهه ..

ركضت وأمسكت بابنتها من الخلف وجذبتها بقوة وهى تردد :

ـ « ما هذا الذى يجذبك ؟.. قولى ! »

والفتاة غارقة فى صراخ هستيرى ...

كان من الواضح أن هناك تجويفًا فى الداخل . تجويفًا أعمق من الجدار ذاته .. الثلاجة تقود لعالم آخر سحيق لو دخلته الفتاة لما عادت . هذه المرة تماسكت مها حتى وجدت السكين التى وضعتها جوار الحوض . تماسكت واتجهت نحو تلك اليد المبهمة الخارجة من الثلاجة وغرستها وبدأت تقطع ..

تراخت اليد وتراجعت للداخل ، فهوت مها على اليد الأخرى تقطعها .. انتفضت اليد بدورها وتراجعت . وفى اللحظة التالية كانت مها تجر ابنتها من شعرها جرًّا بعيدًا عن صندوق الموت هذا . ألقتها أرضًا ثم ركلت الباب بقدمها لتغلقه .. وراحت تلهث ...

لا يوجد منطق .

فعلاً لا يوجد منطق ...

لو كانت هناك يدان حقًّا فلن يشكل المغناطيس الذى يغلق الباب أى مشكلة .. دفعة صغيرة من الداخل وتنفتح ثانية . لكنها تشعر كأنما أغلقت بابًا بين بعدين ...

كانتا تلهثان وترتجفان .. وخطر لمها إن مواجهة هذا كله من دون رجل جريمة .. راحت تبكى وقد تذكرت كيف يبدو الرجال أقوياء ، مبتلين بالعرق ورائحة التبغ تفوح منهم ، ويعرفون ما يجب عمله فإن لم يعرفوا ماتوا ... هكذا تفر المرأة سالمة ..

النصيحة رقم 5 : عندما ترى هذا كله فماذا تنتظر ؟

كانتا جالستين إلى مائدة الإفطار ..

فايزة ما زالت تبكى وقد دخلت فى نوع من الخبال أو الجنون الذهولى ، بينما مها تشتم زوجها السابق بلا توقف ..

قالت فايزة وهى تتمخط :

ــ « لن أنتظر اكثر .. سأذهب لأقيم عند خالى .. »

ـ « العلاقات مقطوعة يا غبية .. »

ـ « خالتى سترحب بى .. لو أردت المجىء معى فبها وإلا فأنا ذاهبة فى كل الأحوال .. هذا البيت مسكون وقد انتهى الأمر .. لن أبيت هنا ليلة أخرى » .

قالت مها فى عصبية :

ـ « تذهبين وتتركين أمك ؟ »

ـ « هل يجب أن أموت معك لتكونى سعيدة ؟.. الرحيل ينقذنا معًا .. أنت تفضلين كبرياءك الخاصة على سلامتنا » .

هذا صحيح لكن مها لن تعترف به أبدًا .. عندما تذهب لأختها وترجوها أن تسمح لها بالبقاء ، فلسوف يكون عليها أن تحكى عن الثعابين تحت الفراش والثلاجة التى تبتلع من يحاولون عمل شطيرة مربى .. سوف تصير أضحوكة ..

غطت فايزة وجهها وراحت تتخلل خصلات شعرها وهى تقول :

ـ « ماذا حل بنا ؟.. ماذا استجد ؟ »

وفجأة تصلبت وتصلبت مها ..

تبادلنا النظرات ..

ماذا استجد ؟. بالطبع كتاب عتيق مغلف بالكتان أخفته مها فى قفص الطيور فى الشرفة ..

قالت مها :

ـ « لا أعرف كيف أطلب هذا الأحمق الشبيه بالقلم الرصاص .. لقد ترك لى هذه المصيبة وفر .. »

ـ « هل تعتقدين أن الكتاب هو المسئول ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن كل شىء بدأ فى أول ليلة له فى دارى »

قالت فايزة وهى تقضم المزيد من الفطائر :

ـ « أعتقد أنه لابد من الاتصال بدكتور رفعت .. »

ـ « لا أحد يعرف كيف يتصل به .. ثم إننى لن أنتظر أيامًا أخرى حتى أجده .. »

وأزاحت مقعدها واتجهت للشرفة ..

ركضت الفتاة خلفها منذرة :

ـ « لحظة .. قد يكون هذا الكتاب أثرًا ثمينًا أو ... »

ــ « لا أهتم » .

وفى الشرفة مدت مها يدها فى القفص الذى ما زال يحمل بعض بقع الدم والريش .. أزاحت القاع ثم أخرجت الكيس البلاستيكى .. الكيس الذى يحوى ذلك الكتاب الجحيمى ..

ــ « ماما .. لو أنصت لى . .. »

ــ « سأفعل ثم أنصت .. »

وفى اللحظة التالية كان الكتاب يطير من الطابق العاشر نحو الأرض ....

ثم استدارت لابنتها فى تحد وقالت :

ــ « هلم .. قولى ما تريدين فأنا منصتة !! »

لقاء يعد بالكثير

-1-

مرحبًا بكم فى المتحف المصرى .

هل أنتم مصريون ؟.. غريب هذا .. لا نرى المصريين إلا نادرًا هنا ؛ لأن (الشيخ البعيد سره باتع) .. من النادر أن يزور المصريون متحفهم الرائع ، بينما تجد هنا أو هناك سائحًا من اليابان أو وفدًا أستراليًّا أو أيسلنديًّا .. أى أنهم قطعوا نصف الكرة الأرضية لرؤية ما لا نجد نحن وقتًا لرؤيته ..

تفضلوا بالدخول .. هل تحتاجون إلى خارطة ؟ لا ؟.. تفضلون الاستكشاف إذن . على كل حال سوف ترون هذين التمثالين العملاقين لأمنحتب الثالث وزوجته الفاتنة تى فى كل زوايا المتحف ، وهكذا لن تضلوا الطريق أبدًا ... أمنحتب الثالث هو والد أمنحتب الرابع الذى لم يعد كذلك .. تحول إلى أخيناتن فى ظروف معقدة لن أضيع وقتكم بسردها .. أما تى الفاتنة فهى من عامة الشعب ، لكن جمالها وفتنتها الأنثوية اللعوب جعلت أمنحتب الثالث يهيم بها حبًّا .. هذه قصة طويلة أخرى ..

فى الطابق الثانى تجدون تحف توت عنخ آمون ..

ألا تريدون مرشدًا ؟.. نعم ؟.. إذن حظًّا سعيدًا .. الحمامات هناك ومتجر التذكارات هنا .. يمكنكم شراء صور وبطاقات تذكركم بهذه اللحظات الأسطورية ..

الآن تعال معى إلى الطابق الثانى ..

تعال من هنا .. لا تخف ..

يمكنك أن تدخل هذه القاعة. رجل الأمن الريفى البسيط يرمقك فى شك .. لكن هذا أقصى شىء يفعله على كل حال . صناديق العرض الزجاجية على الجانبين .

هناك فتاة نحيلة رقيقة تجلس ممسكة بدفتر رسم كبير.. تمسك بقلم من الرصاص تخط به بسرعة على الورق.. يبدو أنها تنسخ شيئًا داخل صندوق العرض ..

يمكنك أن تتأمل ملامحها بسرعة ..

الوجه النحيل الطويل الذى له لون أبيض لا تراه إلا فى آنية المرمر. والأنف الأرستقراطى النبيل .. والشعر الأسود المنحدر على الكتفين. فتاة رائعة الجمال هى ، لكنها لا تناسب كل الأذواق ..

انتبه !.. لقد شعرت بعيننا !.. تعال نتظاهر بأننا لم نكن ننظر فى هذا الاتجاه ..

غريب فعلاً تأثير النظرات هذا .. كيف نشعر بشخص يرمقنا من الخلف دون أن نراه ؟

انزل بعينك لحذائها .. حذاء أنيق ويناسبها جـدًّا . كان لى صديق خبر السياح كثيرًا ، فكان يقول لى : تعرف الأجنبى من حذائه الغريب الذى لا يناسبه غالبًا ...

معنى هذا أنها مصرية حسناء ..

إنها منهمكة فى نسخ ما فى الصندوق بسرعة .. يبدو أنها بارعة فعلاً.

للحظة نسيت أين هى واستندت بكوعها على الزجاج . بدأت ترسم .. هنا ظهر رجل الأمن من مكان ما وطلب منها بالإشارة ألا تفعل ذلك .. ألا تستند على الزجاج ...

واصلت الرسم من جديد .. ويبدو أنها نسيت نفسها ثانية ..

عاد رجل الأمن ينهاها عن ذلك بشىء من العصبية. عصبية تدل على أنه يستطيع أن يكون جلنفًا إذا أراد ...

فى اللحظــة التاليــة تدخــل ذلك الرجل ذو البذلة السوداء والبيريه ...

يبدو أنه كان جالسًا على بعد أمتار ورأى الموقف. نهض متجهًا إلى رجل الأمن وقال له كلمتين وهو ينظر فى عينه . لا أعرف ما حدث فعلاً لكن رجل الأمن ابتعد فى نوع من الخزى ووقف جوار الباب ..

استدار لها وطلب منها أن تعاود ما كانت تقوم به .. أى تسند كراس الرسم إلى الزجاج ..

يجب أن أقول إنه طلب منها ذلك بإنجليزية راقية ، وجلس بقربها يتأمل ما تقوم به بنظرة الخبير بالفنون ..

تأملته الفتاة بسرعة قبــل أن تعــاود الرسم : كان أجنبيًّا بلا جدال .. رجل فى نهاية العقد الخامس من العمر .. له نظرات حادة مزعجة ، وهو ضخم البنيان جدًّا .. فى الوقت نفسه لا شك أنه يشع سحرًا خفيًّا غامضًا . لو كنت لا تعرف معنى (الأومف) ـ كما يسمونها فى هوليوود ـ فعليك أن ترى هذا الرجل .. الأومف هى الخاصية التى تجعلك ترى بطل الفيلم فتدرك أنه

البطل .. الأومف هى التى تجعل الناس فى القاعة يتوقفون عن الكلام عندما يدخل صاحبها القاعة ..

أدركت من البيريه على رأسه أنه غالبًا أصلع الرأس ..

ماذا يبحث عنه ؟

كان جالسًا أمام واجهة عرض أخرى وهو يدون أشياء بقلمه فى مفكرة صغيرة .. ما هذه القطعة التى يدرسها ؟.. يبدو أنها قلادة من الأسرة الخامسة أو شىء من هذا القبيل ..

* * *

عيواس .. عيواس !

أين أنت أيها الغريب المسربل فى الظلام ؟

هل عرفتنى ؟.. هل تذكرتنى من جديد ؟

كنت هنا منذ مئة عام تقريبًا ، وكنت أجلس فى ذات الموضع عندما جئت أنت لتضع يدك على كتفى ..

يومها لقنتنى مبادئ الثليما ..

كل شىء تغير فى هذا المتحف اللعين. كنا فى العام 1904 .. كان المتحف فى صورة بدائية مختلفة . كان تصميم المهندس الفرنسى العبقرى مارسيل دورونو الذى قام به عام 1900 بديعًا ، إلا أنه كان يجب أن يعطى المكان طابعًا مصريًّا قديمًا وليس غربيًّا كلاسيًّا ..

كنت أعرف طريقى فى المكان بسهولة ..

كنت فى هذه القاعة .. وجدت القطعة التى تحمل رقم 666 ..

رقم الوحش ...

كانت تمثل قناعًا لفرعون اسمه (عنخ إف خونسو) .. يقولون إنه لا يوجد ملك فرعونى بهذا الاسم لكنى أعرف ما أقول ..

وجدت هذا القناع وجلست هنا بالذات أرسمه ..

اليوم لا أجد القناع ولا أجد تلك القطعة .. لقد اختفى (عنخ إف خونسو) .. وبالتالى لن أجد عيواس ثانية أبدًا ..

عيواس .. عيواس ..

أنا بحاجة لك ...

أعرف أين كتاب الأسرار ..

أعرف كيف أجده .. لكن ماذا أصنع به وأنا طيف بلا كيان مادى ؟

لابد من استعادة ماديتى أولاً من ثم أذهب للبحث عن الكتاب. أو على الأقل أبحث عن البشرى الذى يعرف موضع الكتاب ...

طبيب هو . اسمه إسماعيل .. رفعت إسماعيل ..

لا أعرف إن كان قد وجد الكتاب أم لا ، لكنه يرتبط به بقوة . كان بوسعى أن أنتزع السر منه ، وهو يذكر ما يكفى لجعلى قريبًا جدًّا ، لكن ماذا أفعل بالكتاب وأنا لا وجود لى ؟..

عيواس ..

عد لى يا عيواس ..

أنا بحاجة لك ...

-2-

هكذا راح الرجل يرسم تلك القطعة ، وكانت الفتاة تفعل ذات الشيء تقريبًا بالقطعة التى تجلس عندها ..

الآن صارت القاعة خالية تمامًا .. لا سياح .. لا صوت سوى احتكاك القلم بالورق وتنفس الرجل الثقيل .

بعد قليل قال لها بتلك الإنجليزية الراقية :

ــ « يبدو أن اهتماماتنا واحدة وإن تباين العمران والبلدان وربما تباينت المهنتان .. هل أكون متطفلاً لو قدمت نفسى ؟.. اسمى (جيمس ألجروود) .. بريطانى ... خبير آثار ورئيس تحرير مجلة (إكوينوكس) .. »

ــ « أكوينوكس ؟؟؟ »

ــ « الاعتدال القمرى ... هذه ترجمة الاسم .. »

ومد يده لها فنظرت لها كأنها ترى ثعبانًا . ثم مدت أناملها فى رفق وصافحته :

ــ « سوسن أبو زيد .. معيدة فى كلية الفنون التطبيقية .. »

ــ « وهذا جزء من بحث علمى معين تقومين به ؟ »

ــ « رسالة الماجستير الخاصة بى .. نعم .. »

ثم رفعت الورقة التى فى يدها فرأى رسمًا متقنًا للقطعة الأثرية تحت الزجاج. ليس الغرض التقاط صورة طبعًا وإلا فإن أى كاميرا تفعل ذلك أفضل .. لكن الغرض فهم هذا التركيب المتقن .. تحليل عقل الصانع الفرعونى الذى أمسك بهذه القطعة منذ أربعة آلاف عام ..

دار الحديث بينهما وتشعب .. هى تأتى هنا كل يوم لتمضى عدة ساعات تستنسخ هذه القطع . هو يأتى كل أسبوع مرة .. إنه مقيم فى فندق قرب ميدان التحرير ، وهذا يسهل مجيئه للمتحف ..

قالت لنفسها إنه رقيق وجذاب .. صحيح أنه ليس وسيمًا على الإطلاق ، ونظراته حادة وقحة ، لكن فى شخصيته جاذبية هائلة ..

بعد ساعة أخرى قال لها وهو يجمع أوراقه :

ــ « سوف أرحل الآن .. لقد أرهقت عيناى فعلاً . سوف أسمح لنفسى بأن أدعوك إلى قدح من القهوة فى أى كافتيريا قريبة .. »

فى النهاية افترقا عند باب الكافتيريا مع وعد باللقاء غدًا ..

وعندما مضت سوسن فى الشارع وحدها تبحث عن طريقة توصلها للهرم حيث تقيم ، فإنها راحت تفكر فى أمر هذا السائح البريطانى المهتم بالحضارة الفرعونية. هو أكبر منها بعشرين عامًا على أقل تقدير وليس وسيمًا على الإطلاق .. كما أنها لم تكن مصابة بعقدة الخواجة لتعجب به لمجرد أنه بريطانى .. لكنها شعرت بأنه لمس روحها فأحرق جزءًا منها ..

وأدركت أنها ستنتظر فى شغف لقاء الغد ...

* * *

فيما بعد عرفت التفاصيل الآتية من الكينونة. هى التى حكت لى ما غاب عنى من أحداث لم أشهدها.

هنا أريد أن أذكر نقطتين : أولاً أنا لا أنوى أن أحكى أى تفاصيل أخرى عن الكينونة اليوم ولا فى أى يوم آخر. هذا سر من الأسرار التى من الخير لها أن تموت مع المرء .. بل يجب أن تموت مع المرء ... ثانيًا : الكينونة لا دور لها فى هذه القصة بالمناسبة . هى فقط تمارس عملها المحبب فى تحذيرى من حين لآخر ، عندما تشعر أننى أقترب من النهاية أكثر من اللازم .

فى الواحدة بعد منتصف الليل يمكن أن تعتبر المتحف خاليًا تمامًا إلا من كاميرات المراقبة .. وبما أن صاحبنا ليس ماديًّا فليس بوسع أى كاميرا أن تصور وجوده ..

لو أنك دققت النظر فى ذلك الركن حيث الواجهة الزجاجية إياها ، لرأيت شكلاً يتجسد .. شكلاً أقرب لرجل ببذلة سوداء يسند يده على ذقنه ويفكر بعمق ..

مع الوقت تظهر الملامح أكثر .. إنه أصلع الرأس .. وبعبارة أدق هو (جيمس ألجროود) شخصيًّا . الرجل الذى كان مع الفتاة منذ ساعات .. نحن نعرف أنه كراولى طبعًا ..

أين ذهب قناع (عنخ إف خونسو) ؟.. لقد فتش عنه بعناية وراجع دليل معروضات المتحف فلم يجد له أثرًا .. أشياء غريبة تحدث فى مئة عام كما هو واضح ..

كان يعرف أنه سيبحث عن القناع وسوف يذهب إلى تونة الجبل يقفو أثر حتحور المعظم ثلاث مرات .. يمكن أن نقول إن حياته فشلت فشلاً عظيمًا لأنه لم يستطع أن يجد كتاب الأسرار. وجد بعض الهرميتات ووجد الثليما .. كل هذا فتات لا يغنى عن الوجبة الشهية التى صنعها المعظم ثلاث مرات ..

لم تكن تقبل دعوة شخص قابلته لأول مرة منذ ساعة ، لكن فى شخصية هذا الرجل شيئًا كاسحًا يجعل الرفض مستحيلاً...

هكذا هزت رأسها فى مرح..

بعد دقائق كانا يتجهان لباب الخروج. كلاهما يحمل كراس رسم تحت إبطه .. كهل وشابة .. غراب وسيم وعصفور ...

* * *

هز رأسه شاكرًا الساقية ، ثم وضع لها بعض المبيّض فى قدحها وذوب السكر ثم قال لها :

ـ « يصعب على من يهتم بالآثار أن يفكر يومًا فى ترك مصر .. وأنت ؟.. ألا ترغبين فى رؤية بريطانيا ؟ »

قالت ضاحكة :

ـ « أتمنى .. لكنى لم أر سوى القاهرة وقرية أبى فى الدقهلية .. »

ـ « الحياة قصيرة جدًّا .. هناك أماكن يجب أن تريها قبل فوات الأوان .. »

ثم راح يحكى لها عن بريطانيا ..

هنا يجب أن نتوقف عند بعض النقاط المهمة :

1 ـ لماذا يجلس الرجل بعيدًا عن المرآة الكبيرة فى القاعة ؟.. لو أنك حاولت أن تغير جلستك لبدا لك كأن الفتاة تكلم نفسها .. طبعًا هذا كلام يذكرنا بقصص مصاصى الدماء .. أعتقد أننا نخرف ..

2 ـ شرب القهوة وهى ساخنة جدًّا توشك على حرق القدح نفسه.

3 ـ أخرج سيجارًا وأشعله .. بالتأكيد أحرق أنامله .. هى رأت ذلك لكنه لم يهتم ..

4 ـ هناك ذلك القط الذى تسلل للكافتيريا وتمسح فى ساق كل واحد من الجالسين ، لكنه لما دنا من ذلك الرجل أصابه الهلع وفر لا يلوى على شىء ..

هذه أسئلة مهمة ، لكن علينا ألا نضيع حياتنا فى هذا الكلام الفارغ وإلا فلن نجد وقتًا لأى شىء آخر .. يجب ألا نصير عصبيين أو عصابيين ...

اليوم جاءت الفرصة من جديد .. لقد منحه أحمق ما حياة فوق حياته ، أو هو نوع من الوقت الإضافى ليعبث فيه كما يشاء .. سوف يستعيد ماديته .. سوف يجد الكتاب ويحكم العالم ..

فقط عليه أن يكون حذرًا من المنافسة ..

يعرف أن حامل الضياء يريد الكتاب.. بل هو يؤمن أنه يخصه وملكه منذ كانت سالومى ترقص حول رأس يوحنا المعمدان .. وقبل ذلك بدهور ..

سوف يحاول أن يجده قبل أن يستعيده حامل الضياء وإلا فهى نهاية الحياة كما نعرفها . نهاية كراولى نفسه على الأرجح ..

لكن أين أنت يا عيواس ؟

أين أنت يا عيواس ؟

أغمض عينه وراح يكرر هذه العبارة ..

ومن مكان ما فى القاعة تحرك الظل ..

شم الرائحة المميزة التى لم يشمها منذ مئة عام تقريبًا .. سمع الخطوات ...

إنه هنا ..

رفع وجهه فى حذر وهمس :

ـ « افعل ما تريد .. هذا هو القانون ..! »

جاء الصوت الطويل المكتوم كأنه آت من الأبدية ، وبدأت رقائق الثلج تتكاثر على الواجهات الزجاجية .. الظل يتحرك أكثر .. إنه عيواس ...

تصدعت إحدى الواجهات الزجاجية من فرط البرد .. تكاثر الثلج على وجه تمثال فرعونى ليس محفوظًا فى واجهة ...

أنت هنا يا عيواس .. لقد وجدتنى برغم كل شىء ..

جاء الصوت الأجوف الرهيب القادم من كهوف ما قبل التاريخ ومن أنفاق تحت الأرض ومن بلاعيم الديناصورات المنقرضة كلها .. قال له :

ـ « قناع (عنخ إف خونسو) ليس هنا .. الواجهة 666 لم تعد كذلك .. »

قال (كراولى) :

ــ « من أخذ القناع ؟ »

ــ « هناك من سرقه من المتحف منذ عقود .. تعرفه أنت باسم (حامل الضياء) أو (لوسيفر) .. إنه إن أخذه يحرمك من التجسد ومن استعادة الثليما أو كتاب الأسرار .. »

هذا منطقى إذن .. لقد اختفى القناع منذ فترة .. فترة طويلة منذ عام 1904 حتى اليوم تسمح بسرقة شىء كهذا ، وهو فى النهاية أثر تافه .. دعك من أن المتحف المصرى يسرق بلا توقف يوميًّا فما المشكلة فى قطعة صغيرة تختفى ؟ لكن معنى هذا أن لوسيفر لم يكن يمزح .. كان يعرف ما يريد وينفذه بدقة ...

كان عيواس موجودًا بقوة لكن من المستحيل أن تراه .. ترى ظله الذى يملأ القاعة وتشعر بوجوده فترفع رأسك لتراه .. هنا لا تجد أى شىء ...

ــ « أنا أريد استعادة ماديتى .. لن أحصل على شىء من دون ماديتى .. »

قال عيواس :

ـ « سوف تستعيدها لكن الأمر ليس هينًا ... ثمة طريقة على شىء من العسر ... »

ـ « وأنا أقبل كل شىء .. »

ـ « إذن سوف تعرف .. »

وفى اللحظات التالية علمه عيواس كيف يستعيد كيانه المادى .. والحق يقال كانت طريقة صعبة وبشعة .. حتى كراولى وجدها بشعة ..

يجب أن أتذكر

-1-

« الآن يسترد لوسيفر كنزه العتيق.. الآن تنتهى دورة الأزمنة ، ويستعيد حامل الضياء كبرياءه ... فلتسمعينى أغانيك يا بنات الليل .. »

* * *

أيام هادئة فى الشمس ..

هذا أنا فى مصحة د. إدريس ، وقد صار اسمى الفنان عباس الغريب . لا أبغى شيئًا من أحد ولا أتوقع أن يطلب منى أحد شيئًا .. لا أعرف من أنا حقًّا .. لا أذكر حرفًا .. صدق أو لا تصدق أن تلك كانت أيامًا رائعة. الميلاد من جديد .. التحرر من صحيفة سوابقك الجنائية والعاطفية والفكرية .. هل تزوجت ابنة عمك لأنهم أرغموك على ذلك ، ولا تعرف إن كنت تحبها حقًّا أم لا ؟.. مرحبًا بك فى النادى .. اليوم هى فرصتك كى تفكر من جديد ..

هل تحب مهنتك أم تكرهها ؟.. لا يهم لأنك لا تذكرها أصلاً..

ما هى آراؤك السياسية أو العلمية أو الدينية ؟.. لا تذكر .. أنت صفحة بيضاء يمكن أن تشكل عليها أى شىء .. من حسن حظ فاقدى الذاكرة ألا يقعوا فى يد شخص سيئ النية ، فهو يقدر أن يجعلك أى شىء .. يمكن اليوم أن يقنعنى أحدهم بأننى جاسوس إسرائيلى متخف أو جنرال نازى يخشى أن يجده اليهود .. سوف أقتنع وأتصرف على هذا الأساس ..

وجد الأطباء أننى مصاب بدزينة من الأمراض المزمنة ، وهذا يستدعى علاجًا مستمرًّا لـدى طبيب الأمراض الباطنية .. أنا مندهش لأن كائنًا حيًّا يعانى كل هذا العدد من الأمراض .. ما هى مهنتى بالضبط ؟ .. نموذج لكليات الطب ؟

أجلس فى الشمس وأرسم ..

تأتى الممرضة الرقيقة (وداد) لتراقبنى أثناء الرسم. بالتأكيد لم تعد علاقتنا علاقة ممرضة بمريض بل هى أكبر من هذا.. هى كذلك ليست علاقة حبيبين . هى أقرب لعلاقة فتاة بأبيها المسن المريض ...

تراقب الخطوط التى تولد على الورق ..

هناك ذلك الرجل ذو البذلة السوداء والنظرات السوداء.. فارع القامة .. على صدره قلادة ضخمة. عامة هو أقرب للهيبة والوسامة لكنه مخيف .. أنت تعرف ذلك التأثير المخيف لكرستوفر لى فى أفلام دراكيولا .. وبرغم فإن كرستوفر لى وسيم وأنيق جدًّا ..

تسألنى من هذا فأمط شفتى السفلى .. طبعًا لا أعرف ..

على كل حال هناك لعنتان أو ثلاث تلاحق أى رسام فى مصر : اللعنة الأولى هى لعنة (من هذا الذى ترسمه ؟).. مستحيل أن يسمح لك برسم وجه ليس له صاحب. اللعنة الثانية هى : (ارسمنى !) .. اللعنة الثالثة هى أن ينظر لك الشخص مفكرًا ثم يقول فى حكمة : (الرسم هواية !) .. كأنه وصل إلى سر الكون ..

هناك لوحة غريبة تظهر الثعابين تحيط بكتاب قديم أوراقه مجعدة ..

ــ « وما هذا الكتاب ؟ »

ــ « لا أعرف .. »

يبدو أننى أستخرج أشياء من العقل الباطن لا أعرفها.. الطبيب يوصينى بالمزيد لأن هذا يكشف خبايا عقلى المظلمة كما قال ..

قالت هى فى حكمة :

ـ « الرسم هواية على فكرة .. »

كنت أشعر بشعور غريب .. هناك قطاع كامل من ذاكرتى أراه كأنه من خلف زجاج مصنفر .. أراه بوضوح وأتبينه لكنى لا أستطيع الوصول له . من وضع حاجز الزجاج المصنفر هذا ؟

هنا جاء أحد العمال وقال لى إن الدكتور إدريس يريد رؤيتى ..

هكذا وضعت أدوات الرسم جانبًا وطلبت إذن وداد .. ثم مشيت خلف الرجل . مخترقًا صفوف المرضى الجالسين فى الشمس والذين يلعبون كرة المضرب.. مصحة راقية جدًّا والأهم أنها تحوى حالات مسالمة خفيفة . ليست طراز المصحات التى يلبس فيها الممرضون أقفاصًا حديدية على رءوسهم ويحملون خراطيم الماء والزنازين مبطنة ...

هناك كان د. إدريس فى مكتبه ..

وجدت معه ذلك الرجل الأنيق الذى عرفت أن اسمه د. سامى. كانا ينظران لى فى اهتمام .. جلست فقال لى د. إدريس :

ـ « د. سامى مصر على أنه يعرفك .. فقط زال شاربك ونحلت قليلاً لكنه يؤكد أن علاقته بك لا تسمح بالخطأ .. »

قال د. سامى فى وقار :

ـ « رفعت .. أنت رفعت .. أنت تعرف أن المرء تحيط به هالة معينة تجعلنا نعرف أنه هو .. حتى لو احترق وجهك فلسوف أظل أعرف أنه أنت .. »

قلت فى حذر :

ـ « لا أعرف إن كنت تعرفنى أم لا يا دكتور .. ربما كنت على حق .. أنا يمكن أن أكون أى شخص فى العالم. لو قلت إننى أدولف هتلر فأنا مستعد للسماع ، لكن صدقنى لست قادرًا على النفى أو التأكيد .. »

قال د. إدريس :

ـ « ربما نحاول عمل مقارنة بصمات .. لكنه إجراء معقد بصراحة .. أن نجد بصمات المدعو رفعت إسماعيل ونقارنها ببصماتك .. »

وضع سامى ساقًا على ساق وملس على شعره الأشيب وقال :

ــ « هاتف منزلك لا يرد .. معظم رفاقك فى القاهرة يقولون إنك مسافر لكنهم لا يعرفون إلى أين .. حياة العزلة اللعينة التى تمارسها كأحد هواة الأكسجين وأعداء ثانى أكسيد الكربون تجعل العثور عليك مستحيلاً .. لو أنك مت أو سافرت لسيبريا فلن يعرف أحد. هناك شخص غامض يبحث عنك فى كل مكان ، وثمة دلائل توحى بأنك هربت منه .. »

بعد تفكير طال تساءل د. سامى :

ــ « من الذى حجز له فى المصحة ؟ »

قال د. إدريس باسمًا :

ــ « هذا أول ما فكرنا فيه .. الحجز باسم محمود الشامى .. هو من دفع الإقامة بحوالة بريدية . طبعًا لا نقوم بالتأكد .. عندما تدفع يمكنك أن تذكر أى اسم ، بينما لو سحبت مالاً فعليك أن تثبت أنك هو أنت .. »

نظر لى د. سامى بعينيه الهادئتين وقال :

ــ « رفعت .. سوف أناديك رفعت .. لا أستطيع أن أثبت أن كلامى صحيح برغم أنه صحيح. لهذا سأتركك هنا حيث العناية

الطبية ممتازة .. أنت تحتاج لهذا على كل حال إلى أن تسترد ذاكرتك تمامًا .. فقط سوف أمر عليك كل يومين لأطمئن ، ولو احتجت لأى شىء فلتقل لد. إدريس أن يتصل بى .. مفهوم ؟ »

ـ « هذا كرم منك يا سيدى .. »

دون بضع كلمات على وريقة صغيرة ثم ناولها لى وقال :

ـ « هنا تجد بياناتى وبياناتك ... سوف تعرف اسمك ومهنتك وعنوانك ... كما أعتقد أنا .. »

غادرت الغرفة حائرًا .. هل هذا الكلام صادق أم خطأ ؟

اسمى حسب الورقة هو رفعت إسماعيل .. غير متزوج .. أستاذ أمراض الدم فى كلية طب (.....) .. مولع بحل ألغاز ما وراء الطبيعة والباتافيزيكس ... أنا لا أعرف معنى باتافيزكس أصلاً .. حياتى صاخبة وغريبة .. بلدى الأصلى هو الشرقية .. قرية تدعى (كفر بدر) ...

لا أعرف .. لكن .. أنا أستاذ طب ؟.. هذه تبدو دعابة. لا أحمل أدنى اهتمام بالطب وأعتقد أننى سأفقد وعيى لو رأيت بقعة دم. لكن ماذا حدث لى فعلاً ؟.. هل هو حادث أم صدمة

عاطفية ؟.. هل اكتشفت أن زوجتى تخوننى أم طردت من عملى أم أفلست ؟ لى أصبع مبتور فى قدمى .. فما قصته ؟.. لقد حدث هذا منذ زمن بعيد على كل حال ..

وما معنى هذه الرسوم الغريبة التى أخطها على الورق ؟

يجب أن أتذكر ..

-2-

على إننى لم أتخلص بعد من بقايا شخصية رفعت ..

هذا ما عرفته فيما بعد ..

بدأ الأمر عندما دخلت إلى فراشى ليلاً .. كانت الإضاءة هادئة تريح الأعصاب ، وجوار فراشى كتاب ضاحك أحبه كثيرًا ..

عندما رفعت الوسادة وجدت تلك الرسالة المغلقة .

شكل المظروف الغريب .. طريقة الغلق مع خاتم من الشمع . الكتابة بالحروف القوطية على الغلف . كل هـذا كـان غريبًا جدًّا ويعيد لك أجواء محاكم التفتيش وعصر النهضة وصكوك الغفران ... إلخ .. كأننى سأرتمى أرضًا صارخًا :

ـ « **ريفوكو** !! »

مددت يدى وفضضت المغلف . طبعًا لم يجل بذهنى أن أتساءل عن نوعية هذا الورق أو هذا الجلد .. ولو عرفت لصرخت وتخلصت من الخطاب فورًا ..

هناك معجبة خفية تتحدث عن نفسها باعتبارها (أنت تعرف من) ..

تقول إنها قلقة على وتريد أن أخبرها أن كل شىء بخير ، لأنها تدرك أن نهايتى دانية وإن الأيام القادمة عصيبة مخيفة ...

بالطبع لم أكن أعرف أن هذه هى الكينونة .. لا تستعمل هذا الاسم فى الخطابات أبدًا .. الغريب كذلك أن خطابها يوحى بأنها لا تعرف أين أنا .. كيف هذا ؟.. كيف يتلقى المرء خطابًا من شخص لا يعرف أين هو ؟

لم أكن أعرف أو لم أكن أذكر أن خطابات الكينونة تصلنى حيثما كنت ، وخطاباتى لها تصلها حيثما كانت .. لا دخل للعناوين هنا ...

كانت تعطينى بعض النصائح التى لا أفهم معناها :

1 ـ دع الثعبان والعقرب يقتتلا وابتعد.

2 ـ من الخير أن تبقى الفضة فى قاع البئر ..

3 ـ لا تثق فى الأطفال أكثر من اللازم.

4 ـ احتضن بيت الأفاعى فعساه أن يمنحك الأمان .

5 ـ عندما تقابل المسخ والدم يسيل من نابيه ، فعليك أن تمنحه ثقتك !

ما هذا الكلام الفارغ ؟... عندما أقابل المسخ فعلى أن أثق به . وبرغم هذا لا يجب أن أثق بالأطفال .. هل هذا شخص يمزح ؟ وما جدوى هذا الورق السميك الشبيه بالجلد المدبوغ .. أليس هذا تبديدًا للموارد ؟

من تسلل إلى فراشى ودس الخطاب ؟

بالطبع هو هذا الشاب المريض بالبارانويا الذى توجد غرفته على بعد غرفتين. هو مخبول تمامًا ويعتقد أنه ملاك جاء من السماء لتحرير الأرض من الشيطان . ليس عدوانيًّا على كل حال لكنه حذر .. وهو يعكف على الكتابة طيلة اليوم ..

إذن يمكن بسهولة تخيل أنه استطاع التسلل لغرف النزلاء المحيطين به .. يدس هذه الخطابات تحت الوسادات ، وهى توحى بأن كاتبها يملك خبرة علوية ويعرف كل شىء ..

ثم يوقع باسم (أنت تعرف من) ..

يجب أن أقدم هذه الخطابات للأطباء غدًا فمن الواضح أن حالة الفتى تسوء .. لن يطول الوقت قبل أن ينقض على أثناء النوم ليأكل هنجرتى ..

لكننى إذ طويت الخطاب ووضعته تحت الوسادة شممت رائحة شياط غريبة .

نهضت مذعورًا ففوجئت بكتلة مشتعلة يتصاعد منها دخان أسود.. الخطاب قد أشعل النار فى الفراش . هذا الخطاب كان للقراءة فقط على طريقة خطابات المخابرات ...

الدخان يفعم الحجرة ..

هرعت للباب وفتحته وصرخت .. بعد لحظات جاء ممرضان وهما يحملان أنبوب إطفاء. واستغرق الأمر بضع دقائق حتى عاد السلام .. عاد السلام ومعه سحابة من الدخان الأبيض تملأ الطابق كله ..

لكن كانت المشكلة بعد ذلك بسيطة :

ـ « لماذا أشعلت النار فى فراشك ؟ »

لا إجابة .. أقسمت لهم أنى لم أفعل وأن الورق اشتعل ذاتيًّا .. لكن مرحبًا بك فى المصحة العقلية حيث الجميع أبرياء .. الجميع لم يفعلوا أى شىء خطأ ...

كل النزلاء يزعمون أنهم تلقوا خطابًا مجهولاً من كينونة لا يعرفونها .. وهذا الخطاب اشتعل فجأة .. كلهم يقول هذا . يبدو أنه لا يوجد مجانين يشعلون النار فى أسرتهم أبدًا .. كلها تشتعل من تلقاء نفسها ..

هذا شىء معروف ..

أما أنا فكنت أفكر فى معنى هذا. هذا الخطاب يحمل سرًّا رعبًا ، والأهم أن هناك من يعرف عنى أكثر مما أعرف عن نفسى ..

وعرفت أننى إذا تلقيت خطابًا كهذا بعد ذلك ، فعلى أن أتخلص منه فى الحمام أو المرحاض ... لابد من ماء ..

-2-

هل كان لى أن أعرف أن سام كولبى النصاب اليهودى لملم جراحه وجسده المهشم ، ثم جلس فى غرفته بالفندق يفكر ..؟

جاء رجال الأمن يفتشون ويبحثون .. طبعًا لم يكن على استعداد بالاهتمام .. أنتم تبحثون عن لوسيفر يا سادة .. د. فرانتس لوسيفر شخصيًّا فلا تضيعوا وقتكم فى هذا الهراء .. ليس بوسعكم عمل شىء ..

طلب كوبًا من العصير ثم جلس، .. صوته مبحوح طبعًا فقد كاد يختنق ..

كان يعرف أن عليه عدة أشياء يجب القيام بها .. يجب أن يعيد لرفعت الأحمق ذاكرته ، وهذا سهل بسيط ، لكنه خطر جدًّا .. لربما كــان من الأكثر أمنًا أن يظل رفعت ناسيًا من هو فى هذه الفترة على الأقل ..

كان هذا خطرًا لأن كينونة رفعت ووجوده أمانتان معلقتان فى عنق كولبى . لو حدث له شىء فلسوف يضيعان للأبد .. هذا

يذكرك بخشية الفراعنة من أن يضيع اسم صاحب المومياء أو يمحى ، وبالتالى تظل الروح هائمة للأبد ولا تعود للجسد ...

لكن من الخير أن يظل رفعت ناسيًا .. والأفضل أن يظل كولبى جاهلاً بمكان رفعت ..

الشىء الآخر الذى يجب القيام به هو إعادة كراولى لعالم الشياطين ..

هذه كانت شديدة الصعوبة والعسر .. من السهل دومًا أن تخرج معجون الأسنان من الأنبوب ، لكن من المستحيل أن تعيده .. وقد جاء كراولى لعالمنا بسهولة لكن عودته عسيرة .

كان موشكًا على الجنون ..

هناك حل بسيط هو أن ينسى هذا كله ويعود إلى الولايات ، لكنه يعرف ما هو أفضل . لقد انتهى وجوده فى الكواليس وصار على خشبة المسرح .. سوف يجده لوسيفر حيثما كان ..

فى اللقاء الرهيب بالفندق قال له :

ـ « موتًا تموت ... تلميذًا لى وعبدًا كنت ، لكن حاجتى إلى إسماعيل أقوى من أى شفقة .. »

ثم قال :

ــ « بحق ابنى العظيم ، إن هذا ليمنحنى لذة هائلة .. سأعود لك .. أنت تعرف أننى سأعود .. »

هكذا لم يعد الأمر يتحمل تفسيرات أكثر ..

هذه هى معركة كولبى أو حربه الأخيرة ضد أستاذه السابق .. سوف يفرغ لوسيفر من رفعت ثم يفتك به. رفعت لا يعرف ما يعرفه كولبى ، أما هو فقد رأى مصير كثيرين تورطوا فى هذه الأمور ، ولم يكن منظرهم محببًا .. رأى من علقوا من أوردة وشرايين أعناقهم .. ورأى من علق من قدميه بينما الفئران المسعورة تتسلى بالتهام وجهه .. رأى من يلتهم قطع لحم جسده المشوية بالقوة ..

إن لوسيفر ــ والحق يقال ــ ليس ودودًا أو ظريفًا ..

هكذا اتجه كولبى لحقيبته وأخرج بعض الكتب السميكة .. كتب سحر عتيقة تتحدث عن صرف الشياطين ..

لا شك أن كراولى قد قام بتأمين وجوده .. لن يكون الأمر سهلاً ، لكنه سيحاول لكن من قال إن عودة كراولى أفضل ؟..

إن لديك لوسيفر .. وهو هائج يبحث عن شيء يخصه.. لا أحد يقدر على منعه .. ربما أنت بحاجة إلى كراولي فعلاً بكل ما يعرفه وكل الشر المتوطن فيه ..

ترى ما هو الحل الصائب ؟

* * *

كان كولبي يبدو مضحكًا لمن رآه بوجهه الطفولي الدقيق وحالة (الدهولة) العامة هــذه ، وهــو يمشي في ذلك الحي الشعبي المزدحم ..

كانوا يرمقونه في دهشة . ما لم يكن المصري يعمل بالسياحة فإنه يعتبر السائح كائنًا فضائيًّا مسليًا لابد من مراقبته طيلة الوقت ..

لكن كولبي علق الحقيبة على كتفه ، وواصل المشي وهو يلهث .. يحتاج إلى دخول الحمام بأي شكل فهي البروستاتا كما تعلمون . أخيرًا وصل إلى مدخل البيت المكون من طابقين .. كان المدخل بابًا خشبيًّا متجهمًا عتيقًا .. هناك كان السمسار ينتظره ..

عملية العثور على شقة مفروشة خلال يوم أمر شاق .. لكنه راح يبعثر الدولارات ..

كان السمسار يريد معرفة السبب الذى يدعو خواجة مثل هذا إلى البحث عن بيت رخيص من غرفة واحدة فى حى شعبى ؟.. الجواب جاهز وهو أن كولبى رسام .. يريد أن ينفعل بالتراث المصرى ويرسمه ..

لابد أن السمسار سمع الكثير من هذا الهراء .. لكنه على كل حال اختار لكولبى هذا البيت الصغير عند (سوكة).. لا يوجد أحد فى الطابقين لأن البيت آيل للسقوط عدم المؤاخذة ، لكن هناك شقة ضيقة فى المدخل .

مبروك يا خواجة .. صارت الشقة لكولبى لمدة شهرين بمبلغ زهيد جدًّا ..

الحقيقــة كما لابد أنك فهمت ، هى أن اليهودى كان يبحث عن مكــان خال يستطيع فيه أن يتبول أولاً ثم يمارس طقوسه .. لا يستطيع أن يفعل هــذا فى الفنــدق .. دعك من حاجته إلى خلوة ...

وعندما صار وحده أسرع ليفتح حقيبته ..

أخرج منها بعض الكتب وملاءة سوداء وزجاجة بها سائل مبهم ..

كان الليل يقترب .. عليه أن يتحرك بسرعة ..

فى البدء فرش الملاءة على الأرض ثم سكب فوقها الرماد .... وبدأ يتلو عبارات لاتينية من كتابه. ليته ينجح فيما يريد .. لقد جاء بكراولى هذه البلاد .. عليه أن يعيده من حيث جاء .

كتاب غريب

-1-

اعتاد هشام ابن البواب أن يذهب إلى تلك الخرابة الممتدة خلف البناية. هناك كان يجد متعًا لا حصر لها تبدأ بمطاردة القطط ولعب كرة القدم ، وتنتهى بقذف الغربان بالحجارة ..

كانت هذه الخرابة تشكل رئة يتنفس بها كل أبناء البوابين فى المنطقة ، وسط هذا الحى الأنيق المغرور الذى يمتاز بالتفرقة الطبقية .

كان هشام فى العاشرة من عمره ، وهو شيطان صغير شديد الظرف والحيوية ، دعك من أنه كان بارعًا فى المدرسة فعلاً .. كان ذكيًّا وكان يؤمن أن العلم هو الطريق الذى سيوصله إلى سطح المجتمع الطبقى .. لا أمل لمن هو مثله كى يصير شيئًا ذا بال إلا بالعلم .. يصير طبيبًا أو مهندسًا أو قاضيًا أو ضابطًا ... هذا هو المفتاح الوحيد ....

بالإضافة لهذا كان يحب القراءة .. على قدر علمى لم يترك أى حروف مطبوعة تمر أمام عينيه دون أن يحاول قراءتها ..

هكذا كان هشام ينهى واجبات المدرسة ثم يفر فرارًا إلى الخرابة. أبوه كان يبحث عنه كى يقوم بهذا المشوار أو ذلك ، أو ينظف سيارة هذا الساكن أم هذا .. لكن هشام كان يفر من هذه الأعمال ويشعر أنها مهينة. الأسوأ أن يبحث الساكن عن نقود فى جيبه ويناولها لها فى تعالى من يملك كل شىء على من لا يملك شيئًا ..

هذه الأمور كانت تقتل الصبى قتلاً ، أما أبوه فكان عمليًّا جدًّا يرى أن هــذه شكليات .. ما يهمــه هو إطعام هذه الأفواه .. لا وقت لترف الأفلام العربية هذا ..

المهم أن هشام نزل إلى الخرابة وراح يلهو بعلبة من الصفيح ..

هناك أسفل تلك البناية الشاهقة راح يتسلى بقذف العلبة متخيلاً المنتخب البرازيلى كله يحاول انتزاعها منه ..

فجأة رأى شيئًا غريبًا .

هناك ثعبانان ينسلان هاربين ويختفيان وسط حزمة من الأعشاب ..

بالنسبة لأى صبى وأى إنسان آخر كان هذا سيملأ قلب الصبى فرقًا ، لكن هشام كان شيطانًا صغيرًا .. مد يده إلى جيبه وأخرج

علبة الثقاب التى يستعملها فى إشعال الحرائق الصغيرة (أحيانًا كان يشعل سيجارة لكن ليبق هذا سرًّا بيننا).. أشعل عودًا ثم قرب منه ورقة وجدها هناك .. اشتعلت الورقة .. فقذفها فوق حزمة الأعشاب الجافة ..

لو كان معه بعض الكيروسين !.. لكن للأسف !

هنا رأى ثعبانًا يفر من بين الأعشاب ويبدو أن النار قد لسعته بقوة .. كان يبغى الفرار لكن صخرة محكمة التصويب هوت لتهشم رأسه ..

يبدو أن الآخر احترق حيث هو ...

منذ متى تأتى الثعابين هنا ؟.. لقد كان هذان أول ثعبانين يراهما فى حياته ..

اقترب هشام من جدار البناية الخلفى .. كان رطبًا أتلف تسرب دورات المياه معظم الملاط فيه وتهاوت بعض قطع القرميد . هنا رأى على الأرض ذلك الكيس البلاستيكى المتسخ .. يبدو أن أحد السكان ألقاه من شرفة داره ..

تناول الكيس وتفحصه .. بداخله ما يبدو كأنه كتاب غليظ ...

سوف يأخذه معه للدار ويحاول قراءة ما فيه .. ربما كان شيئًا مسليًا . ذات مرة وجد مجلدًا كاملاً من مجلة سمير فى كيس كهذا ، وقد منحه هذا المجلد أيامًا من المتعة ..

سوف يترك الثعابين اليوم ويأخذ هذا المجلد إلى البيت ..

* * *

ليس بيتًا بالضبط كما تعرف بل هى حجرة تحت السلم ..

هنا تعيش الأسرة وتنام وتطهو طعامها .. لو لم تكن تلك الخرابة خلف نطاق البنايات لجن الجميع .

وثب هشام إلى الغرفة المليئة بالبراغيث ، وأضاء المصباح .. إن أمه فى السوق وأباه يجلب مأمورية لأحد السكان التنابلة .. أخوه فى المدرسة اليوم .. هو وحده تمامًا ..

المجلد مغلف بالكتان .. هذا غريب ..

عندما استطاع فى النهاية إخراج الأوراق منه ، أدرك أنه قديم ورطب جدًّا .. وأنه من أوراق البردى التى يعرفها من المدرسة .. هذا شىء ثمين .. ليس كتابًا عاديًّا ..

هناك رموز كثيرة نعم .

وهناك كتابة كذلك... كتابة بلغة غير مفهومة ...

لكنه يستطيع فهمها ..

لا يعرف السبب ولا لماذا يقدر على فهمها .. لكنها مفهومة ..

وبدأ الشعر ينتصب على مؤخرة عنقه .. ريقه جاف وقلبه يتسارع ..

هذه رسالة مرسلة له منذ آلاف السنين .. وهو يتلقاها وحده هنا والآن . برقية تأخرت بعض الشىء...

هذا المكتوب خطر جدًّا .. إنه يقودك إلى بوابات مظلمة .. تجتازها .. عندها لا تعود أنت هو أنت ..

هناك شىء يتبدل فيك من دون شك .. أنت تقترب من أسرار عظمى .. تعـرف أشـياء لم تعرفها من قبل ولن تعرفها من بعد ...

الصبى ذو الأعوام العشرة يتغير بقسوة ..

إنه ينمو عقليًّا بلا توقف ..

إنه يزداد حكمة وفهمًا للأمور ..

إنه يعرف الكثير بلا شك ..

نصف ساعة من القراءة جعلته يسبق من حوله عدة قرون ..

كلما قرأ صفحة صارت الصفحات التالية أسهل وأقرب للفهم ..

مما عرفه بلا جهد أن بعض الناس قادرون على قراءة الصفحات والبعض لا .. هذه لغة تعلمها فى زمن ما وهو فى رحم أمه ، أو ربما وهو فى وجود آخر ، بينما باقى الناس لم يتعلموها ..

يبدو أنه طالع الكتاب كله فى ساعتين .. لا أعرف كيف لكن هذا ما حدث على الأرجح ..

أخيرًا استطاع أن يثوب لنفسه ..

كان راقدًا على ظهره غارقًا فى العرق البارد .. صدر جلبابه المبتل يخبره أنه قد أفرغ معدته .. نظرة لسرواله تخبرك أنه بال على نفسه كذلك ...

يبدو أن الرعب كان كاسحًا .. ليس الرعب بالضبط .. التجربة ذاتها ..

يجب أن ينهض ويبدل مظهره بسرعة ، وعليه كذلك أن يخفى هذا الكتاب .. لا يجب أن يراه أبوه أو أمه ..

-2-

فى الصحراء فى ذلك الوقت بالضبط ..

يقف حامل الضياء .. لوسيفر .. وقد باعد ما بين ساقيه ليبدو كهرم يقف راسخًا هناك. الريح تزأر وحبات الرمل تتطاير لتلسع العيون والأذرع .. لابد من ثقوب ينز منها الدم لو كنت هناك .. البرق يضرب فى عنان السماء .. لكنه برق بلا رعد .. شىء غريب مخيف ..

كان يعرف الآن يقينًا أن رفعت وجد الكتاب .. لقد رأى الصورة كاملة فى ذكريات كولبى ، بل كان كولبى هو الذى استرد الكتاب من فلسطين .

لقد تأخر أكثر من اللازم.. كان عليه أن يبدأ قبل أن يخفوا الكتاب من جديد .. لقد توارى الكتاب وتوارى رفعت .. لابد من البحث عن الثانى فلسوف يقودك للأول ...

فى الواقع لم يتخيل أننى فى ذلك الوقت لم أكن أعرف أين الكتاب بدورى ...

ــ « فليأت جيشى من الذئاب .. »

هنا يتصاعد العواء من بعيد ..

بعد لحظات يمتلئ الأفق بذئاب شرسة شهباء منتصبة الشعور متوترة تلعق أنيابها .. العيون تضيء بلون النـــار .. والعواء الموجس الكئيب يزداد عمقًا ..

تحيط الذئاب بلوسيفر ..

هذه الذئاب لم تأت من عالمنا كما هو واضح .. هى ذئاب مستوردة جاءت من جانب النجوم رأسًا ...

يصعد فوق صخرة لترتفع قامته أكثر ويهتف :

ــ « ابحثن لى عن ذلك الفانى .. فتشن الصحارى والوديان . لا تتركن كهفًا ولا فلاة ولا هاوية إلا وبحثتن فيها .. أعرف أنه قد يكون مات. لهذا أوصيكن أن تنبشن القبور بحثًا عنه.. اقرأن أفكار الناس فأنتن ككل الذئاب تقرأن الأفكار جيدًا .. سوف تعرفن كل شيء عنه .. »

ثم قاطع ذراعيه وصاح :

ــ « لا يمسنه ذئب !.. لا يمسنه ذئب !.. أريده حيًا ! »

فهمت الذئاب النداء فانطلقت لا تلوى على شىء وهى تعوى بلا انقطاع ..

وفى الواحات الصحراوية .. وفى القرى عرف الناس أن شيئًا جللاً يحدث .. لقد تعالى العواء حول القرى فاحتضنت الأمهات أطفالهن وارتجفن ، وأغلق الناس البيوت خائفين ..

وعلى الطريق الصحراوى الساحلى كانت السيارات المندفعة تفاجأ بقطعـــان من الذئاب تطـــاردها .. وكان من يمضى الليل فى سيارته يصحو فجأة ليجد عينى ذئب تتأملانه من خلال الزجاج ... ذئب لا يبدو أنه يريده بالذات .. كما يفعل المخبر الذى يبحث عن رجل معين ولا يضيع وقته مع آخرين ..

سرعان ما يدير الذئب خطمه ويعوى ثم يقرّب مبتعدًا .. التقريب هو طريقة من طرق ركض الثعالب لو كنت قد نسيت أشعار (امرؤ القيس) ..

* * *

هناك فى الخرائب والمناطق العشوائية حول القاهرة تعالى عواء الذئاب .. من حين لآخر يظهر ذئب ضخم ينظر حوله فى ارتياب ثم يبتعد .. ويواصل البحث ...

لم يدرك سكان القاهرة حجم الخطر ولا ما يدور حولهم لحسن الحظ ..

كانوا نائمين .. أو يتهيأون للنوم ، لكن لو كانت بناية أحدهم تطل على مساحة خاوية أو خرابة ، لرأى ذئبين أو ثلاثة يركضان هناك وقد انتفشت الأعناق ...

يبدو أن التفتيش المنظم سوف يمتد إلى الاسكندرية وباقى المدن ..

كان ذلك المتسول راقدًا فى خرابة قريبة ، وكان قد تدثر بعباءة ممزقة والتهم قطعة من رغيف يحمله. هنا شعر بشىء غريب .

فى الظلام الدامس وفى ضوء النجوم الواهى الخافت رأى ما بدا له ككلب كبير. كانت حياة التسول والتشرد قد علمته ألا يعبأ بالكلاب .. الكلاب تعرف من لا يستحق اهتمامها .. على الأرجح سوف يأتى الكلب الأجرب الجائع لينام جواره ..

لكنه كان يرى الشكل الضخم المخيف ، ويدرك أنه شىء أقرب إلى كلب عملاق أو ذئب .. لا يستطيع التحديد بسبب الظلام ..

هنا رأى الوجه فى ضوء النجوم ..

كانت العينان مثل جمرتين تنظران له فى ثبات على بعد مترين ..

كان موشكًا على قذف هذا الشىء بحجر ، لكن العينين كانتا قويتين جـدًّا . كانتا تخترقان أعصابه وجهـازه العصبى كله .. نفس الشعور الذى وصفته لك من قبل : طفل يمد إصبعه منقبًا فى أنفه.. هنا إصبع غير مرئى ينقب فى مخه ..

وسمع النداء يتكرر داخل عقله :

ــ « رفعت . هل رأيت رفعت ؟ »

ومع الصوت صورة تتكرر لرجل أصلع نحيل الوجه .. لم يره من قبل .. بالتأكيد لم يره من قبل .

فى اللحظة التالية استدار الذئب مبتعدًا وهو يعوى ....

رآه يقف فى الظلام ناظرًا إلى صف من البنايات البعيدة ويتشمم الهواء .. يبدو أنه يبحث من جديد .. كأنه يستمع إلى ما يدور فى تلك البيوت ...

« ابنتك لا تستذكر دروسها .. تمضى الوقت فى العواطف على الهاتف .. »

ــ « أنت لا تعطينى مالاً كافيًا للبيت .. »

ــ « الكهرباء الاستاتيكية يمكن حسابها بالطريقة التالى .. »

« خالتى مريضة ويجب أن أزورها .. »

ــ « قلت لك إننى لا أحب العنف .. »

ــ « الميراث ليس من حقها .. المحامى يعرف هذا .. »

ــ « إن .... »

وابتعد الذئب ببطء وثقة ، بينما راح المتسول يرتجف .. اعتاد ألا يخاف على حياته أبدًا لأن أحدًا لا يريدها ، لكنه شعر الليلة بذعر غير مسبوق ..

ونظر للسماء فرأى ألسنة البرق الصامتة ..

قال لنفسه إن الليلة غير عادية .. هناك ــ أعوذ بالله ــ شىء لا يمكن وصفه هنا ..

* * *

بعد نصف ساعة لم يبق المتسول فى مكانه ..

يمكنك أن تراه وهو ينهض .. يتواثب عبر الخرابة كأنه غراب تحطمت ساقه .. لو أنك رأيته لامتلأت فرقًا ورعبًا خاصة مع النظرة الثابتة الميتة فى عينيه ..

هذا رجل سيطرت عليه فكرة واحدة ..

عندما خرج من الخرابة قابله متسول آخر بدين قذر الرائحة .. تبادل الاثنان نظرة ذات معنى ثم ابتعدا .. كل واحد فى اتجاه ..

ـ « حسنة قليلة !! »

هكذا راح يردد كأنه يترنم ، وهو يخترق شارعًا مزدحمًا بالناس ..

يرمقونه فى اشمئزاز أو خوف .. لكنه يصطدم بهم بقوة .. ويشق طريقه وهو يفحص الوجوه كلها .. يدخل محلاً واثنين وثلاثة ، ويتحمل الطرد ... يدخل مقهى فيأتى النادل ليصرفه فى غلظة .. يدس فى يده عملات كى يرحل. لكن المتسول لا يعبأ به .. يتفحص الوجوه فى فضول وجشع ..

لو أردت تشبيهًا دقيقًا لقلت إنه مثل المكنسة الكهربائية التى لا تترك شيئًا ..

لو أنك ابتعدت عن القاهرة وارتفعت فى السماء لأدركت أن هناك ظاهرة مرعبة ..

المتسولون فى كل مكان .. يقومون بعملية تسول ممنهجة ، بينما فى الوقت ذاته تعج المناطق المهجورة بالذئاب . معظم الطرق تقطعها الذئاب ..

الحقيقة التى لم يفطن لها أحد هو أن القاهرة فى تلك الليلة صارت مدينة محتلة ..

* * *

صبوا لنا بعض الدم المختمر ، ولتسمعونا صرخات المعذبين فى أقبية (هيدز) ... ولترقص الجثث المتحللة فى انتشاء .. إن لوسيفر والحق يقال راض ...

* * *

فى الليلة التالية سقطت الإسكندرية ودمنهور تحت قبضة هذا الاحتلال غير المرئى غير المفهوم ...

لقد كان مشهدًا أسطوريًّا أن ترى الذئاب الشهباء المخيفة تركض جوار شط البحر والموج يضربها ويبلل فراءها .. من حسن الطالع ألا تقابلها وأنت تمشى على الشط ليلاً ...

كان لوسيفر قد بدأ يزداد عصبية ..

يمشى على الشاطئ وسط زبد البحر والهواء يطير شعره ..

يرفع يديه كأنه يريد تحدى البحر الغاضب ..

كراولى هنا .. رفعت هنا .. لكنه عاجز عن العثور عليهما ...

الحقيقة أن لوسيفر ارتكب خطأ جسيمًا ، عندما جند كل قواه للبحث عنى .. لو بحث عن الكتاب نفسه لقابل بالتأكيد صبيًّا مراهقًا وجد كتابًا غريبًا فى خرابة .. كان هذا سينهى المشكلة ..

ـ « ماذا تفعل هنا يا أستاذ ؟ »

كان هذا جنديًّا من حرس السواحل يقوم بجولة تفقدية .. رأى رجلاً فارع الطول يلبس السواد وملامحه غير مصرية ، وهذا الرجل كان يزأر كالذئاب فى غضب ... مشهد غريب جدًّا ..

ابتعد عنه أيها الرجل الطيب .. لو كنت مكانك لتركته ..

إنه ليس فى حال تسمح بالتسامح أرجوك .. إنه ....

لقد طار المسكين بعيدًا بعيدًا .. أمسك به لوسيفر من عنقه وقذف به فى قلب البحر بقوة لا توصف .. لو لم يتحطم عنقه ــ وهذا صعب جدًّا ــ فلسوف يغرق لا محالة ..

لا تمزح مع د. لوسيفر عندما يكون مغضبًا ...

خبرة لا تنسى

-1-

كنت جالسًا فى حديقة المصحة ، أرسم وأتبادل الكلام مع مريض آخر ..

هنا سمعت ضوضاء عند الباب . كان هناك رجلا أمن فى حوار غاضب مع واحد ، وهذا الأخير يردد بلا توقف :

ـ « حسنة قليلة تمنع بلاوى كتيرة .. »

ثم جاء رجل أمن ثالث لينهى المناقشة ..

هنا حدث شىء غريب إذ أفلت المتسول الواقف عند البوابة من الحصار الثلاثى ، واندفع إلى الداخل .. إلى الحديقة .. كان رجلاً فى الأربعين من العمر يلبس قميصًا ممزقًا على اللحم ويستند إلى عصا غليظة ، وقد هرع إلى حديقة المصحة ورأيته ينظر حوله بلا توقف .. كان جائعًا للرؤية ...

كانت ذبابة لحوح تدور من حولى فاستدرت لأطردها ...

جرى ثلاثة الرجال وراءه فناورهم قليلاً ، وفى النهاية سقط بين أيديهم ، وهو لم يكن قويًّا على كل حال .. تلقى صفعة أو صفعتين على قذاله فهرعت نزيلة تشتم الحراس الذين يتسلون بالقسوة على بائس كهذا ..

عندما أخرجوه من الباب ، قال جارى وهو مدير عام على المعاش اسمه (زكريا) :

ـ « المتسولون صاروا لحوحين بشكل لا يطاق .. »

لا أعرف .. بدا لى هذا الرجل متسولاً فعلاً لكن ليس الموضوع موضوع إلحاح .. بدا لى كأنه يريد أن يلقى نظرة على الداخل .. نوع من سرقة النظر قبل أن يُمنع ..

على كل حال لم تلتق عينانا قط لأننى كنت مشغولاً بالذبابة ..

يمكن القول إنه لم يرنى أصلاً ...

* * *

فى الوقت ذاته لو ذهبنا إلى المتحف المصرى :

سوف تجد فى ذات القاعة الخواجة البريطانى (جيمس ألجroood) ، وهو يقوم برسم قطعة أثرية أخرى ، بينما جواره

تجلس تلك الفتاة الرقيقة سوسن .. كلاهما غارق فى عالم قدماء المصريين الثرى الساحر ، وإن كانا يتبادلان بعض الكلمات من حين لآخر .. يبدو أن تقارب الاهتمامات له عامل جذب مهم ..

كانت نظراتها له ساحرة .. من حين لآخر ترفع عينها وتضحك فى دلال ، ثم تعود للرسم ..

كان هو خبيرًا بالنساء .. لم تعد تخفى عليه أسرارهن أبدًا ويعرف معنى كل إيماءة يقمن بها. هذه فتاة معجبة .. هذه فتاة تستريح له ..

لكنه كذلك كان يعرف قواعد صيد السمك .. لا تتعجل شد الصنارة ... لا تختبر حظك .. اصبر .. تمهل .. أى محاولة للإسراع سوف تجعل السمكة تفلت ، وقد كانت سوسن سمكة رائعة فعلاً .

بعد ساعتين من العمل قال لها :

ــ « يجب أن نتوقف قبل أن أصاب بالحول .. تعالى نشرب شيئًا فى مكان ما .. »

خرجا من المتحف وكان هناك عدد من السياح يلتقطون الصور عند الباب. نفس الوفد الألمانى الذى كان موجودًا منذ يومين ...

عندما جلسا فى تلك الكافتيريا المعتادة ، راح يكلمها عن الفن المصرى القديم. كان يعرف الكثير فعلاً وشعرت بأنها جاهلة ..

قال لها :

ــ « أعرف تفكير الشرقيات وأعرف أن هذا الكلام غير مقبول ، لكنى فعلاً أرغب فى أن تزورى شقتى ! »

اتسعت عيناها ونظرت له ولم تقل شيئًا ..

قال بسرعة قبل أن تشتمه :

ــ « قبل أن تقولى شيئًا ، أريد أن ترى مجموعة الرسوم التى لدى .. كما أريد أن ترى التماثيل التى قمت بمحاكاتها .. هذا شىء لا يمكن تفويته. أعرف أنك لن توافقى لذا أطلب منك أن تجلبى معك أى صديق أو صديقة تريدين .. »

فكرت بعض الحين ثم قالت :

ـ « من الممكن أن أفكر فى الأمر لو كنت سأحضر معى من أريد .. »

ـ « أى شخص تريدين .. لن تطول الزيارة أكثر من ساعة لكنها ستكون خبرة لا تنسى فعلاً .. »

راحت تفكر . واتخذت قرارها ..

-2-

فى اليوم التالى وقفت سوسن على مدخل المتحف المصرى .. ثوب أبيض أنيق يجعلها أقرب لملاك شفاف مع حقيبة بنفس اللون ، وقد عقصت شعرها على جانبى الرأس كأن هناك ثمرتين صغيرتين تتدليان على جانبى شجرة . فبدت كجرو صغير لعوب ..

كانت تنتظر قدوم الخواجة العلامة جيمس ألجroوود ليصحبها لشقته .. بالطبع مع صديقتها نادية .. لم يكن الأمر كله فضولاً فنيًّا بل كانت ترغب كذلك فى أن ترى حياته عن كثب.. هذا الرجل مفعم بالأسرار وهى تريد أن ترى أكبر قدر ممكن مما تخفيه البئر ..

كانت واقفة وقد علقت الحقيبة وراحت تتأمل نبتة صغيرة نامية فى الحديقة..

هنا شعرت بمن يلمس كتفها ..

استدارت للخلف فوجدت سيدة فى الخمسين .. سائحة كما هو واضح تحمل رزمة من الصور الفوتوغرافية وتتكلم بإنجليزية سيئة جدًّا :

ـ « معذرة .. أنا ألمانية .. »

سؤال آخر لن تعرف إجابته طبعًا .. أين يوجد مكتب تحويل العملة ؟ .. إلخ ...

لكن السيدة قالت على الفور :

ـ « أنا رأيتك أمس.. كنت مع ذلك السيد الذى يلبس الأسود .. كنا هنا والتقطنا حشدًا من الصور .. »

هزت سوسن رأسها فى ضيق .. تريد عبارة إنجليزية تحمل معنى (هاتى من الآخر) فلم تجد .. قالت السيدة :

ـ « معذرة .. قلت إننا التقطنا بعض الصور.. كنت أنت فى الخلفية .. أذكرك بوضوح وأنت تهبطين على الدرج مع السيد .. والآن أرجو أن تلقى نظرة على الصور .. »

تناولت سوسن الصور التى تم طبعها .. كانت ترى السياح الألمان يتكلمون ويقفون محيين الكاميرا ، وترى نفسها فى الخلفية تتبادل الكلام لكن مع من ؟.. لا يوجد أحد.. مجال نظرها يدل على أن من تكلمه فى الكادر وليس خارجه كما يحدث كثيرًا ..

ما معنى هذا ؟

قالت السائحة وعيناها تتسعان رعبًا :

ـ « السيد ذو البذلة السوداء لم يظهر فى أى صورة !.. هل ترين ؟.. كانت هناك عشر مرات يمكن أن يظهر فيها .. »

هزت سوسن كتفها فى عدم فهم .. ألعاب الضوء وألعاب الكاميرات لا حصر لها .. كيف تجد التفسير ؟

قالت السائحة وهى تبتعد :

ـ « سوف أبتعد لكن أرجوك أن تتذكرى هذا .. ولا صورة !.. أليس هذا غريبًا !... داس ايست شايسه ! »

عم تتحدث ؟.. شايسه ؟

فى اللحظة التالية ظهر السيد ذو الثياب السوداء أو (جيمس ألجروود) ، ومن مكان آخر ظهرت نادية .. التقى الاثنان حول سوسن ، التى أشرق وجهها وراحت تقدم كلاً منهما للآخر .. أنت قابلت ألجروود ، لذا لن أصفه لك .. أما عن نادية فهى تختلف عن سوسن فى كل شىء .. سمراء .. جسد ضخم .. كبيرة اليدين والقدمين .. لها صوت صاخب عال ، لكنها ظريفة وتشعرك بالألفة فورًا ..

قال جيمس وهو ينظر فى ساعته :

ـ « الحادية عشرة .. سوف نعود هنا بعد ساعة .. لن يطول الأمر أكثر .. »

ابتسمت الفتاتان ، واتجهوا إلى الميدان ليستوقفوا سيارة أجرة ... »

* * *

عند ذلك العنوان فى جاردن سيتى توقفت السيارة .. كان جيمس يتكلم عربية مفهومة على الأقل ، فلا يحتاج لمن يترجم له ..

ترجل الثلاثة .. وبعد دقيقة كانوا يصعدون فى الدرج .

فى الطابق الرابع توقف الرجل وفتح بابًا خشبيًّا ، فرأيتا شقة من ثلاثِ حجرات كما يبدو .. لا يبدو أنها كاملة الأثاث .. يبدو أنه أخذها مفروشة واكتفى بغرفة واحدة مؤثثة جيدًا. كانت رائحة الشقة غير مريحة كما أنها كانت رطبة جدًّا .. الأثاث عتيق يدل على أنه مؤجر مع الشقة فعلاً .

جلسوا فى قاعة جلوس كبيرة ، وجاء لهما بعلبتى عصير ... كان متمهلاً جدًّا ..

بدا التململ على سوسن ، وسألته :

ـ « هل يمكن أن نرى تلك الرسوم والتماثيل التى تكلمت عنها ؟.. لن نظل هنا للأبد .. »

قال بطريقته العربية الطريفة .. طريقة (سالام يا هابيبى) التى تروق للمصريين :

ـ « بالطبع .. لكن لابد من واجب الضيافة أولاً .. »

لكن نادية بدت مستمتعة بالجو ، وبدا واضحًا أن الرجل نفسه راق لها .. كانت تضحك بصوت عال رنان وتتأمل كل شىء فى فضول ..

راحت سوسن ترشف العصير وهى تنظر للجدران العارية والغرفة الخالية من الأثاث .. هذا بيت لا يناسب السكنى .. لا تجرؤ أن تطلب رؤية غرفة النوم لكنها تتمنى أن تراها فعلاً.. المفترض أن تحوى كل شىء ممكن من لوازم الحياة ..

ثمة خطأ ما ..

ماذا كانت تريد قوله ؟

ثمة خطأ ما ..

لماذا يبدو تفكيرها كطبق من العسل الثخين ؟.. ثقيل جدًّا والملعقة لا تتحرك فيه تقريبًا .. لزج . بطىء ... ماذا هنالك .. كل شىء ينسى ويذوب ...

هناك .. هناك .. ماذا تريد قوله ؟

هذا العصير .. هذا العصير ليس على ما يرام ..

القصة الأبدية .. هناك مخدر ذائب فيه ..

هل كان كل هذا العناء من أجل خطفها ؟...

سوسن دخلت عرين الذئب كما فعلت سوسن الأخرى فى قصة الأطفال التى قرأتها فى المدرسة قديمًا ...

إنها .. تنسى ما تريد قوله ..

هذا الظلام .. الظلام ....

....

* * *

تفتح عينيها ببطء .. تستغرق دقائق عديدة حتى تتذكر كل شىء ..

كان أول ما لاحظته هو أنها فى ذات موضعها على نفس الأريكة. هل غابت عن الوعى ثم ثاب لها فى لحظات ؟.. هناك حالات إغماء عارضة كهذه ..

ثم سمعت صوت القضم والابتلاع والامتصاص ...

نظرت إلى اليمين فرأت مشهدًا غريبًا بعض الشىء .. إن جيمس ألجroood جاث على ركبتيه وكفيه ، وهو منحن على كومة من الثياب الدامية .. كلب يلتهم وجبة الغداء .. هذا ما خطر لها من المشهد ..

عندما دققت أكثر أدركت أنها تحملق فيما تبقى من نادية صديقتها . إنها راقدة كأى فريسة تحترم نفسها قدموها للأسد فى حديقة الحيوان ..

من هو جيمس ألجروود ؟.. ماذا يفعله ؟..

هل هو الشيطان ؟

راحت تتنفس بسرعة وهى تجاهد حتى لا تفقد الوعى . لكن معدتها كانت أقوى وسرعان ما أفرغتها على السجادة .. نهضت وهى تترنح .

كان الشراب يحوى مخدرًا .. لقد تم تخديرها وربما تخدير صاحبتها .. والغرض .. الغرض لم يكن السرقة بل الالتهام .. حرفيًّا الالتهام .. جيمس ألجroوود آكل لحوم بشر أو مصاص دماء . لا تعرف حقًّا ..

ــ « السيد ذو البذلة السوداء لم يظهر فى أى صورة !.. هل ترين ؟.. كانت هناك عشر مرات يمكن أن يظهر فيها .. »

قالت السائحة الألمانية هذا وليتها أصغت ..

ليتها أصغت ..

لا تثقى يا سيدتى أبدًا فيمن لا يظهرون فى المرايا وفى الصور الفوتوغرافية . عندما يتقدم لك عريس منهم فاطرديه بغلظة ..

كانت تتجه للباب ماشية بظهرها .. عندما وجدت أنه يمسك بمعصمها. متى جاء ؟.. لا تعرف .. إنه سريع جدًّا أو هو غير مادى ..

عندما نظرت له رأت وجهه ملطخًا بالدم ...وجه أسد كان يتناول وجبته حالاً .. تلك الرائحة ..

قال لها بصوت مبحوح :

ـ « لا تقلقى بصدد الجثة .. أنا سأخفى الجثة .. »

هتفت وهى ترتجف :

ـ « اتركنى .. أنت لست .. لست .. »

ثم فطنت إلى أنها تتكلم العربية فعادت تكرر نفس الكلام بالإنجليزية. قال لها :

ـ « منذ البداية لم أنو أن أفتك بك .. أنا كائن طيفى شبحى لا يتمتع بقوى مادية. فقط يمكن أن أمس يدك أو أغلق بابًا .. كى أكتسب ماديتى من جديد أنا بحاجة للدم البشرى واللحم البشرى .. لهذا طلبت منك أن تزورينى .. طلبت أن تجلبى صديقة لك .. أنت فعلت هذا وسوف تفعلينه إلى أن أصير ماديًّا .. والوعد الذى أقدمه لك هو ألا تكونى أنت آخر وجبة لى . لن أفتك بك .. »

كانت تبكى وشعرت أنها عاجزة عن الوقوف .. لا يمكنها فهم أو استيعاب ما يقال كأنه باللغة الفنلندية :

ـ « دعنى .. لماذا أفعل ذلك ؟ »

ـ « لأننى سألاحقك فى كل مكان .. أعرف مسكنك وغرفة نومك وأعرف أفراد أسرتك .. إن لم تأتينى بما أريد فلسوف أخرج لأظفر به. عندما ترين جثة أمك الممزقة هنا فلا تقولى إننى متوحش .. لقد حاولت .. »

نظرت إلى حيث كانت جثة صاحبتها وهمست :

ـ « أنت .. أنت قد .. التهمتها .. »

قال وهو يترك معصمها :

ـ « لا يهم ما يحدث لها بعد الموت .. فقط أنا أفعل هذا من أجل غرض أسمى وأهم. صدقينى لن تحبى ما سيحدث لو جاء حامل الضياء إلى العالم مكتمل القدرات ... »

ـ « لا أفهم .. »

ـ « لن تفهمى .. والآن ارحلى .. وتذكرى أننى أنتظر الضحية التالية بعد يومين فى نفس المكان عند المتحف المصرى .. »

وفتح لها الباب فخرجت تترنح كأنها ثملة .. لا تذكر أين الدرج ولا أين الشارع ، ولا اسم الحى الذى هى فيه .. احتاجت لنصف ساعة حتى تجد نفسها فى شارع القصر العينى ..

التهاب رئوى وشنق .. إلخ

-1-

فى المساء بدأ د. لوسيفر فى تجربة الديدان ..

كانت تزحف فى كل مكان وتلتهم كل شىء . ولاحظ الناس أن الأطعمة تتعفن بسرعة ، كما لاحظ المرضى أن جروحهم تنتن .. كانت الديدان الدقيقة فى كل مكان تقريبًا ..

البالوعات فى وسط المدينة امتلأت بالديدان ..

وفى منزلها لاحظت مها أن الطعام الذى حفظته فى علبة بالثلاجة منذ يوم واحد قد تغطى بالطحلب والديدان. تقلص وجهها اشمئزازًا وتخلصت منه فى القمامة. قررت أن تجلب رجل صيانة الثلاجات غدًا لأنها تلفت غالبًا .. هى تكره إحضار أى عمال للبيت لأن هذا يفسد سمعتها ..

الحقيقة أن الأمور هدأت تمامًا بعد تخلصها من الكتاب اللعين ، ولهذا قررت أن تنتقم من رفعت إذا رأته .. لم تجد ثعابين لحسن الحظ برغم أنها قضت فترة لعينة من الرعب ..

لكن هذه الديدان .. إن أمرها غريب فعلاً.. لابد أن تعرف السبب ..

سمعت صوت الذئاب من بعيد ..

ذئاب هنا ؟.. فى هذا الحى ؟

الأمر مخيف وغريب .. لـــذا أغلقت الشباك جيـــدًا وذهبت لفراشها الذى صار مشتركًا مع ابنتها منذ فترة .

كانت قلقة متوترة ، لذا قررت ألا تخرجا غدًا .. لن تذهب الفتاة للمدرسة .. سوف تبقيان فى البيت وليكونن هذا أكثر أمنًا ..

* * *

وفى ساعة مبكرة من الصباح بدأت الأمطار تهطل . ازدادت كثافة فتحولت إلى سيول حقيقية ..

ملأ الوحل الطرقات .. أنت تعرف أن القاهرة يمكن أن تغرق لو سكب عليها أحدهم كوبى ماء .. هذه عاصمة غير مؤهلة للبلل بتاتًا ..

كان الناس غافين لا يعرفون بموضوع المطر ..

فقط ربما تقلب أحدهم ورفع رأسه ليسمع صوت الـ (شششششت) خارج النافذة ..

لكن (هشام) الصغير صحا من نومه فى تلك الغرفة الصغيرة تحت السلم . كان الكتاب متواريًا فى (مسقط) البناية تحت مجموعة من العلب القديمة المصنوعة من ورق مقوى ، وكان مغلفًا بالبلاستيك لكن هذا غير كاف. كان هذا هو المكان الوحيد الذى خطر له لأنه ما من أحد من السكان يدخل هذا المكان ..

القاعدة الأولى : الكتاب قوى جدًّا ..

القاعدة الثانية : لو تأذى الكتاب فلن يكون أحد فى أمان .

هكذا أسرع يخطو فوق أقدام النائمين .. فتح الباب بحذر ليغادر الغرفة الصغيرة القذرة ، ثم فتح باب المسقط الخشبى المتداعى وخطا للخارج .

المطر يتساقط مع ذلك التأثير الذى يشعرك بأن الأجسام مضيئة .. وكان البرد قارسًا قاسيًا .. كان يرتجف بقوة كورقة وهو يرفع الأوراق المقواة التى تحولت إلى عجين بسبب المطر.

تناول الكيس البلاستيكى ..

عاد للغرفة .. كان مبتلاً كإسفنج البحر أو الشعاب المرجانية.. فى الظلام راح يزحف ، ثم بحث تحت المنضدة الوحيدة فى الغرفة الضيقة .. هناك كان الطست الذى تغسل فيه أمه. وضع الكيس الذى يحتوى الكتاب فيه ، ثم وضع فوقه أكداسًا من الخرق القديمة ..

عاد للنوم وهو يرتجف كورقة ويلهث ..

كان يدرك يقينًا أنه سيمرض .. لا شك فى هذا ...

الشخص الآخر الذى تعرض للمطر بقسوة كان أنا ..

عندما بدأت الأمطار تهطل شعرت برومانسية قوية وامتزاج بالكون ، وأنت تعرف أننى ككل الشيوخ مصاب بظاهرة (الاستيقاظ قبل الأوان) .. أبدأ النوم بسهولة نسبية لكن هذا

لا يدوم . هكذا وجدت نفسى الوحيد المتيقظ فى مصحة مليئة بالتيوس النائمة ..

كنت ألبس المنامة ، فوضعت فوقها الروب واتجهت إلى الباب الذى يطل على الحديقة .. فتحته ووقفت تحت الأمطار التى تغسل كل شىء .. فتحت فمى لأشرب بعضها .. من لم يشرب قطرات من المطر هو شخص لم يعش بعد ..

العوينات صارت كزجاج سيارة أثناء عاصفة .. وابتلت صلعتى جدًّا .. هذا كاف .. سوف أعود ..

طبعًا لأكتشف أن كالون (اللانش) الذى يغلق الباب قد انغلق من الداخل ولا يمكن فتحه من الخارج .. لقد طردت إذن !

جريت وسط الأمطار والخف ينزلق من قدمى ، بينما الروب تحول إلى شبكة صياد فى عرض البحر ..

تبًّا !... مشكلة الطبيعة هى أنها تتظاهر بالرومانسية .. هستيرية أكثر من اللازم . كان يكفيها بضع قطرات مطر لتعلن

أنها تمطر لكنها تبالغ فعلاً . غريب أن هناك من يمشون تحت هذا الجو ويعتبرون أنفسهم رومانسيين مرهفى الحس ..

هكذا رحت أطلق السباب وأتعثر وأنزلق فى الوحل ..

حتى بلغت غرفة الأمن ورحت أقرع الباب لمدة 45 ساعة تقريبًا إلى أن استيقظ أحدهم .. يأتون ليناموا طيلة الليل ثم يطالبون براتب ، ويتضايقون جدًّا لو تأخر يومًا ..

عندما عدت لغرفتى أخيرًا كنت أرتجف كورقة ..

وعرفت أننى لا أحتاج لشىء آخر كى أصاب بالتهاب رئوى هو نهايتى على الأرجح ..

-2-

ـ « أريد أن يسود الشيطان ، وأن تعوى أشباح الرغبة فى الأزقة المظلمة ، لكنى كذلك لا أرغب أن يظفر بك حامل الضياء .. لا أرغب فى أن يظفر بالكتاب .. »

* * *

لابد أن هذا كان وقت الظهر عندما قام رجال الشرطة بفتح الشقة عنوة ..

بالفعل كانت الرائحة لا تطاق ، وقد قدروا أن هذا حدث منذ ثلاثة أيام .. ربما ..

(سوكة) صاحب البيت هو أول من شك ، ولما كان الساكن لم يظهر طيلة هذا الوقت فقد راح يدق الباب بلا توقف. ولأن الساكن أجنبى فقد قرر ألا يتهور وأن يطلب رجال الشرطة ..

جاء رجال الشرطة وحاولوا كثيرًا لكن أحدًا لم يرد ..

الآن صار الجميع على يقين من المشهد الذى سيرونه عندما يدخلون ، وبالفعل بدءوا يطردون الأطفال المتجمهرين ويبعدون النسوة الفضوليات .. إن مدخل الشقة فى الطابق الأول كما تعرف .. أى أنه تقريبًا فى الشارع ..

هشم رجلا شرطة الباب ..

وبينما صارت الرائحة شيطانية فعلاً ، كان أحدهم قد هرع يبحث فى الشقة الضيقة ..

هناك فى الحمام كانت الجثة المشنوقة تتدلى من ملاءة سوداء معقودة على شكل حبل . وكانت معلقة من خطاف يبدو أن سكان البيت قديمًا كانوا يعلقون عليه الخراف .. لابد أنهم كانوا يأكلون خروفًا كل يوم ! الرجل يلبس كامل ثيابه كأنه يستعد للقاء الموت بشكل مهيب ..

راح صاحب البيت يلطم خديه .. راح يشتم الساكن ويدعو عليه :

ـ « كنت أعرف يقينًا أن وراءه كارثة .. هذه أشكال لا تأتى بخير أبدًا .. »

لكنه لم يكن متضايقًا جدًّا فالرجل دفع إيجار شهرين ، والبناية آيلة للسقوط وسوف تزال .. لهذا لن يعوق حادث الانتحار قدوم مستأجرين آخرين ..

بينما راح رجال المختبر الجنائى يلتقطون صورًا للجثة المشنوقة .. يبدو أنه تسلق على حقيبته ثم ركلها بقدمه فصار معلقًا بالحبل فقط .. والسؤال الذى يثير غيظ صاحب البيت هو : لماذا لم يفعل ذلك فى أى مكان بعيدًا عنى ؟ إنه كالشخص الذى يثب من الطابق العاشر ليسقط فوق رأسك أنت بالذات ....

ملامح الوجه الطفولية التى تذكرك بدمية وحالة الدهولة العامة .. كل هذا جعل كل واحد يعتقد أنه رأى هذا الرجل فى مكان ما بشكل ما .. صحيح أن الجثة كانت منتفخة متحللة لكن كان بوسعك أن تعرف ملامح المشنوق .

بحث رجال الشرطة حتى وجدوا مع الرجل جواز سفر يحمل اسم (سام كولبى).. أمريكى الجنسية .

كانت هناك رسالة فى مغلف كذلك .. وكانت هناك مشكلة فى فتحها مما قد يتلف البصمات ، لكن أحد رجال المختبر الجنائى رفع البصمات من عليها ثم دس يده فى قفاز وفتحها ..

كانت مكتوبة بالإنجليزية .. قال الرجل فى عدم فهم :

ـ « هذه رسالة .. يقول فيها :

عزيزى رفعت :

عندما تقرأ هذه السطور ، سأكون غالبًا فى طريقى للوطن لأدفن هناك ، ولسوف تسبب وفاتى صدمة لك .. صدمة ثكل لو كنت تحبنى ، وصدمة خوف على مصيرك أنت لو كنت تكرهنى ..

عجزت تمامًا عن إيجاد طريقة للخلاص من كراولى .. بالفعل هذا أقوى منى .. جربت يومين دون جدوى ، واعتقادى الخاص إنه بدأ يسترد ماديته. لا أدرى كيف. ربما هو وجد مصدرًا متجددًا للدماء .. أعرف أننى السبب وأنى جئت لكم بمصيبة حقيقية تزيد الحياة تعقيدًا فسامحنى .

المشكلة الأخرى هى أننى لا أستطيع مواجهة لوسيفر . إنه حانق وغاضب .. وقوى جدًّا . أنت لا تعرف مدى قوته لأنه كان يداعبك لا أكثر طيلة هذه السنين . لا أتحمل اللحظة الأكيدة التى سيسترد فيها كتابه ويأتى ليبيدنى ويبيدك .. سوف يكون عذابه شديدًا لأنه يتمتع بسادية غير معقولة ، وقسوته جزء من كبريائه وفخره . فى جانب النجوم يجب أن يعرفوا عنه أشد درجة من القسوة .. القسوة التى لا تملكها الضباع ولا الأسود .

سوف أفر منه إلى حيث لا يجدنى .. لن يقدر على استرداد روحى أو إيذائى ؛ لأننى هربت بالفعل ، وآمل أن يرحمنى الله .. كان على أن أختار بين الانتحار أو تحمل أعتى درجات العذاب ..

الآن سوف أعلق هذه المشنقة .. وسوف أتدلى من الملاءة جثة هامدة . إنه سوف يأتى من أجلك .. كلاهما آت من أجلك سواء لوسيفر أو كراولى .. لذا أنصحك أن تفعل مثلى فلا يوجد حل آخر .. ابحث عن ملاءة تتدلى منها .. هذا هو الحل الوحيد صدقنى ..

وداعًا ....

« كولبى »

لم يفهم رجال الشرطة حرفًا لكن الرسالة قالت بوضوح إن الوفاة انتحار .. لا شك فى هذا .. فقط عليهم أن يفهموا من هو رفعت هذا ..

قال أحد رجال الشرطة مازحًا :

ـ « إن كراولى ولوسيفر هنا .. لقد اقتربت نهايتنا .. »

فى الواقع لم يفهم كم أن هذه المزحة واقعية ..

هكذا رحل كولبى ..

أعوام طويلة مشتركة انتهت للأبد ...

أعترف أنه نصاب لكننى أحببته كثيرًا وعرفت منه الكثير ، كما أنه أفادنى أكثر مــن مــرة .. على الأقل لن يشكو من البروستاتا ثانية .. هذا شىء مهم ..

* * *

كان على أن أنتظر طويلاً حتى أعرف ..

حتى أجد المذكرة فى يدى ..

لكننى فى تلك اللحظات كنت لا أعرف شيئًا على الإطلاق ، كأننى كلب صغير رضيع لم تفتح عيناه ولا أذناه بعد .. لم أكن أعرف كولبى ولا من هو .

لم أكن أعرف الورطة التى أنا فيها .

لم أكن أعرف أن لوسيفر قد قرر أن ينهى اللعبة ..

حتى أمثال لوسيفر يشعرون بالملل بعد قرون من الانتظار. لست الوحيد سريع الملل هنا .

أنا أتحسن يا عيواس

-1-

أنا أتحسن يا عيواس ..

بالفعل أنا أسترد ماديتى وأزداد قوة ..

هل تعى ذلك ؟.. هل تراه ؟...

إن الدم البشرى قوى حقًّا . ليست هذه تجربتى الأولى فى شربه .. تعرف أننى جربته فى حياتى مرارًا . خبرات كثيرة تراكمت لدى ثم استلبها الموت مني. أنا الوحيد الذى كان يلفظ أنفاسه فلم يطلب رجل دين وإنما طلب من يقرأ عليه مقاطع من قانون ثليما ..

إن الفرصة متاحة لى لمواصلة حياتى .. أنت تعرف أننى أحب القاهرة والمتحف المصري. على بعد خطوات من تونة الجبل ومعبد تحوت ..

والهرميتات !!!

أنا أتحسن يا عيواس ..

سوف أبحث عن كتاب الأسرار ولسوف أجده .. أعرف هذا يقينًا ..

* * *

فى المرة الثانية لم يقدم جيمس ألجروود ــ أو أليستر كراولى ــ العصير لسوسن ...

كانت هناك فى شقته تنتظر كالعادة أن ترى التماثيل التى صنعها . كانت ترتدى ثوبًا بلون السماء ، وتربط حزامًا أزرق حول خصرها وقد تدلى قرطان سماويان من أذنيها . كانت فاتنة كالعادة ، وجوارها كان شاب يعتقد أنه سيفوز بها فى النهاية .. اسمه هو ..

لقد نسى جيمس اسمه ..

يا لقوته !.. يا للدم الذى يجرى فى أوردة عنقه وفى بشرته ..!.. هذا الفتى سيكون وجبة ممتازة فسحقًا للفتيات البدينات ..

الشاب همس فى أذن الفتاة بينما ألجروود يصب له بعض الشراب :

ـ « هل تعرفين ؟.. هذا الأجنبى يشبه بشدة ساحرًا شريرًا يعرفونه فى بريطانيا .. اسمه (ألستير كراولى) .. »

كان الشاب مخرجًا سينمائيًّا شابًّا ، قد قضى فترة طويلة فى بريطانيا ... لذا كانت رموز الثقافة البريطانية هذه مألوفة لديه .. رجل الشارع العادى على كل حال كان سيقول إن الرجل الأجنبى قريب جدًّا من موسولينى ..

ابتسمت الفتاة وقالت فى دلال :

ـ « يا مامى !... ساحر ؟.. وماذا تعرف عنه ؟ »

ـ « لا أعرف سوى هذا .. »

ثم جاء جيمس بالكأس فتناوله الفتى ، ورشف رشفة خفيفة وقال موجهًا كلامه للرجل :

ـ « سوسن قالت لى إن لديك أعمالاً فنية جديرة بالاهتمام .. »

قال البريطانى فى تواضع :

ـ « هذه حماسة شبابية واضحة .. لست بارعًا لهذا الحد .. »

كان الفتى نافد الصبر . إن لم يكن الرجل بارعًا لهذا الحد فلماذا يضيع وقته ويأتى به هنا ؟.. رشف رشفة خفيفة أخرى .. ثم تحسس رأسه وغمغم :

ــ « هذا مشروب قوى جدًّا .. أشعر بدوار .. »

قال البريطانى :

ــ « فودكا .. قلت إنك تعرفها .. أعترف أنها قوية جدًّا .. »

ــ « جدًّا .. »

ثم بدأ رأسه يتدلى على كتفه .. غربت عيناه وتعالى صوت شخيره ..

قال ألجروود وهو يتناول الكأس من يده قبل أن يتهشم :

ــ « لقــد نام ... والآن يا سوسن .. أقترح أن تنصرفى أو تغمضى عينيك وأذنيك .. »

قالت فى عصبية :

ــ « سوف أرحل .. »

ــ « موعدنا غدًا فى المتحف المصرى .. أريد ضحية أخرى .. »

هتفت محتجة وهى موشكة على الانفجار النهائى :

ــ « لن تجرنى معك فى هذا .. لا أتحمل أكثر .. »

ــ « أنت معى فعلاً .. بالنسبة للقضاء لا يختلف قتيل عن عشرة قتلى .. »

ــ « هناك لحظة للتوقف .. »

ــ « هى لم تأت بعد .. »

وسمعته يتلمظ ثم سمعت صوت شدقيه ، فابتعدت نحو الباب محاولة ألا تسمع أو ترى .. كانت تفكر فى الضحية القادمة التى ستخدعها .. لشد ما تغيرت حياتها خلال ثلاثة أيام .. فجأة هى تمارس نفس نشاط ريا وسكينة وتسلم أصدقاءها للقتل .. نسخة أنثوية من يهوذا الاسخريوطى من دون ثلاثين قطعة من الفضة ..

هنا سمعت صوت الصياح ..

نظرت للخلف فوجدت الشاب قد أمسك بجيمس من عنقه وألقى به أرضًا ، ثم انهال عليه لكمًا بذات اليمين وذات الشمال ..

كان يردد بلا توقف :

ــ « أنا خمنت من نظراتك وشكلك المريب إن الشراب يحوى شيئًا ما .. لقد تظاهرت بالشرب يا أحمق ..!! »

ووجه لكمة أخرى ...

ـ « الآن يجب أن أفهم .. هل هذا تنظيم عصابى ما ؟ »

كانت تنظر فى ذهول.. الحقيقة أن جيمس برغم بنيانه المتين وعضلاته المكتملة ، كان ضعيفًا فعلاً.. بالفعل هو أقرب لكيان شبحى غير مادى .. ربما يفتح بابًا أو يغلب فتاة لكنه فى النهاية لا يقدر على صراع مع شاب غاضب ..

كان وجه جيمس محتقنًا بينما الفتى يضرب رأسه فى البلاط مرة تلو المرة ..

سوف يموت ..

ولكن كيف يموت إذا لم يكن موجودًا ؟؟

هى غير خائفة عليه ، لكنها بالتأكيد قلقة بصدد المخرج الشاب صديقها .. عندما ينتهى سوف ينهض ويطلب منها تفسيرًا ..

هكذا بحثت حولها فرأت ذلك المقعد الثقيل جوار المائدة .. حملته بكثير من العسر ووقفت خلف الشاب المنهمك ثم هوت بكل قوتها على رأسه ..

* * *

لمدة ساعة تقريبًا ظل الثلاثة راقدين على الأرض الباردة ..

هى فقدت وعيها وتفككت أعصابها ..

جيمس يحاول استعادة توازنـه ..

الفتى تفجر الدم من رأسه وفقد وعيه لكنه حى على الأرجح ..

نهض جيمس أولاً .. لم يضيع الوقت فى الأسئلة ولا الفهم. زحف على أربع نحو الشاب فاقد الوعى ، ومن جديد بدأت تسمع الجلبة وصوت الشدقين ... لم تنظر .. ظلت تحملق فى السقف محاولة أن تنسى ما تسمعه وما مرت به ..

قال لها جيمس وهو يمتص شيئًا ما من عروق الفتى :

ـ « أنت تدافعين عنى .. »

قالت دون أن تنظر له :

ـ « أدافع عن نفسى أولاً.. أما أنت فأدعو الله أن يرسلك إلى الجحيم .. »

ـ « كنت هناك .. »

وواصل الامتصاص والقضم... تبًّا .. هذا الصوت يحطم الأعصاب فعلاً.. أنت تشعر به مصغرًا عندما يجلس جوارك فى

السينما رجل يلتهم الفيشار بلا توقف . حسن .. أنت لم تسمع شيئًا بعد !

فى النهاية استطاع أن ينهض .. شعرت بقدميه جوار خصرها فرفعت عينيها .. كان وجهه ملوثًا كالمرة السابقة ، لكنها أدركت أنه ازداد قوة .. قال لها :

ــ « والآن ارحلى .. موعدنا فى الغد .. »

ــ « والجثة ؟ .. »

ــ « سوف أتخلص منها .. »

-2-

إننى بقصصك أسعد ولها قلبى يطرب ، والمسوخ الآخرون هم من أجلى منتشون ..

* * *

عندما اقترب المساء جلس لوسيفر على سفح الهرم الأكبر يرمق الصحراء المظلمة الممتدة أمامه ..

لقد ألقى نظرة على كولبى .. بعبارة أخرى أرسل المتسولين يبحثون عنه ، وعلى الفور انتقلت الصور البصرية إلى عقله . رأى كولبى جثة مشنوقة يحيط بها رجال الشرطة ، ورأى المذكرة التى كتبها كولبى لرفعت .. لا يوجد فيها أى شىء يدل على مكان الأخير وهذا متوقع ..

لقد مات كولبى .. هرب .. وكان بالفعل قد أعد له عقابًا مروعًا .. لقد كان فى صف رفعت الفانى أكثر مما كان فى صفه ، برغم أنه مفيد وبلا خطر .. لقد حق عليه العقاب ، لكن ليس بهذه الميتة الهينة ... هناك الزيجول الذى يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة ...

هناك الريموزا الذى يتم إدخاله فى فم الضحية .. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل فى أحشاء الضحية .. هذا موت بطىء يستغرق عدة ساعات ... هناك ديدان الناكاخ التى تقتحم الرأس من الأنف ، وتشق طريقها فى جمجمة الضحية حتى المخ مدمرة كل شىء تقابله .

هناك الكثير من المرح .. لكن بشرط : يجب أن تكون الضحية حية ..

رحل كولبى بما يعرفه .. ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الكثير ..

لقد توارى رفعت منفردًا أو بشكل لا يعرفه من يعرفونه ..

سوف يكتب ابنه خيرياسوس المدون فيما بعد أن بشريًّا أحمق خدع حامل الضياء .. إنهم ينتزعون منه المجد ، والكارثة الحقيقية هى أن يموت رفعت قبل أن يجده لوسيفر .. من المؤكد أن رفعت وجد الكتاب ويعرف أين هو .. هكذا سيكون عليه أن يواجه الشيطان ليخبره أن كتاب تحوت ضاع للأبد ....

لابد من البحث أكثر ..

إن الذئاب والمتسولين والديدان لم يحققوا شيئًا ، وإذن فالوقت وقت أساليب أقوى ..

* * *

هكذا ارتفعت درجة حرارتى ..

رحت أسعل بلا توقف ، وفكرت فى الالتهاب الرئوى ، لكن شيئًا لا أعرفه فى عقلى قال لى إن هذا مستحيل .. هناك فترة حضانة قبل الالتهاب. من أخبرنى بهذا ؟.. لا أعرف لكنى فعلاً بدأت أعتقد أن هناك جانبًا طبيًّا فى شخصيتى ..

رحت أرتجف وأهلوس ..

وسط الهلوسة رأيت نفسى أحمل لفافة وأركض ، ومن خلفى يركض كلب أسود عملاق لا يمكن أن يكون كلبًا حقيقيًّا .. هذا كلب آل باسكرفيل كما فى قصة دويل. كنت فى صحراء ممتدة ولا أحد حولى ولا ملجأ بينما هناك من يردد :

ـ « إننى بك أسعد ولك قلبى يطرب .. »

كنت أتعثر وأسقط .. ومن اللفافة التى أحملها راحت أوراق ملوثة بالدم تتناثر ...

صحوت ملوثًا بالعـرق .. شاعرًا أن قدمى مغروستان فى الرمال .

جاء الطبيب الباطنى ليفحصنى .. وأعلن أنـها حالة إنفلونزا بسيطة .. طلب منى أن أستريح ولا أغادر الفراش وأعطانى بعض المسكنات ..

الحقيقة أننى كنت فى حاجة إلى منبهات . لا أريد أن أنام ثانية ويأتى ذلك الكلب الأسود يلاحقنى من جديد ...

لم أعرف أنه فى ذلك الوقت تقريبًا ارتفعت حرارة الصبى هشام ابن البواب جدًّا .

راح يرتجف ويهلوس .. ولم تعرف أمه ما تفعله. طبعًا أذابت بعض الأسبيرين فى كوب ماء وراحت تسقيه .. وهو عمل أحمق كنا نلجأ له كثيرًا فى الماضى قبل أن ندرك خطر الأسبيرين على الأطفال . لكن حرارة الصبى بدأت تهبط ..

راح يسعل بقوة فسقته منقوع الزنجبيل مع الحلبة مع العسل .. هذا خليط شنيع يرغم المريض على الشفاء حتى لا يتذوقه ثانية .. لابد أنه يقتل الفيروسات كذلك لأن الفيروس كائن حى يشمئز بدوره .

نام الصبى وراح يهلوس ..

غريب جدًّا أن أحلامه راحت تدور حول صحراء يركض فيها بينما كلب أسود عملاق يطارده ...

* * *

من جديد اتصل أهل نادية بسوسن ..

سمعت صوت الأم الباكية على الهاتف تردد :

ـ « لم تظهر بعد .. هذا مستحيل .. »

قالت سوسن محاولة أن تجعل صوتها مقنعًا :

ـ « صدقينى .. لم تأت لموعدنا فى المتحف المصرى .. لقد اختفت قبل ذلك .. أنا واثقة من أنها ستعود .. »

ـ « جربنا المستشفيات والمشرحة وأقسام الشرطة .. ماذا نفعل ثانية ؟.. آخر ما قالته لى هو أنها على موعد معك .. »

ـ « أنا نفسى قلقة جدًّا ... صدقينى .. »

ـ « أرجو أن تتذكرى جيدًا .. ربما لكما صديقة مشتركة ذهبت لها .. »

ووضعت الأم السماعة .. سوف تتصل بالتأكيد بعد ساعة أخرى . لقد صار الأمر يحطم الأعصاب. وفى الوقت نفسه اتصل أحد أصدقاء المخرج الشاب حلمى يسألها عنه .. إنه يعرف رقم هاتفها إذن ، ويعرف أن المخرج يحبها ...

المخرج اختفى تمامًا ولا يعرف أحد أين هو .. قال له إنه سيقابل سوسن عند المتحف المصرى ثم تلاشت أخباره ..

راحت تكرر الأسطوانة المشروخة ..

إنها فى مأزق .. هناك من يشك فيها فى كل مرة ، ولن يطول الأمر حتى يدرك رجال الشرطة أن هناك فتاة واحدة تعتبر عاملاً مشتركًا فى كل حوادث الاختفاء. لن يعدم الأمر كذلك أن يظهر من رآها مع المخرج أو مع نادية وهذا يثبت أنها تكذب ..

يا له من مأزق ..

النقطة الأخرى الأخطر ليست فى إخفاء ما قامت به .. الأخطر هو أن تجد ضحية جديدة ..

هل تبلغ الشرطة ؟.. بالطبع لا .. لقد تورطت بما يكفى ولن يصدقها أحد. ثم أنها تدرك الآن أنها تتعامل مع لعبة بلا قواعد

مادية معروفة .. هذا الذى يحاصرها سوف يجدها حيثما كانت .. سوف يجد أسرتها ....

تصورت أخاها على الأرض ممزقًا بينما ذلك المسخ يلتهمه .. اقشعرت .. لن تستطيع التراجع ..

سوف تجد ضحية جديدة اليوم ..

الضــــباب

-1-

قالت نرمين وهى تلثم سوسن على خدها :

ـ « أوحشتنى يا أبله سوسن .. »

كانت واقفة على باب المدرسة بالثياب الزرقاء المميزة ، وقد علقت حقيبتها على ظهرها وراحت تعبث فى ضفيرتيها ..

نرمين قريبة سوسن من بعيد ، وهى فى الثالثة عشرة من عمرها . فى هذه السن تكف البنات عن الانبهار بالأب ويملن للأم أو الأنثى الناضجة عامة ، وقد كانت نرمين تعتبر سوسن قدوتها لما تريد أن تكونه يومًا ..

نظرت سوسن حولها ثم وضعت يدها على كتف نرمين :

ـ « أنا بحاجة لك .. لا أعرف شخصًا آخر يمكن أن يساعدنى .. »

ـ « أى شىء تريدين .. »

ـ « سوف نذهب فى مشوار قصير إلى المتحف المصرى وربما لجاردن سيتى .. »

ـ « لكنى لم أخبر أحدًا .. أسرتى ستقلق على .. »

ـ « ليس وأنت معى .. على كل حال يمكنك الرفض لو أردت .. »

فكرت نرمين قليلاً .. هى لا تنوى التخلى عن سوسن رمز الأنوثة بالنسبة لها .. كل ما تقوله سوسن أو تفعله يسعدها . لا بأس بهذه الرحلة القصيرة ، خاصة أنها مع سوسن . لن تكون مع شخص غريب ..

فكرت حينًا ثم امتصت طرف ضفيرتها وقالت :

ـ « هيا بنا .. »

كانت سوسن تفكر : لقد تورطت جدًّا .. جدًّا .. أنا فى أسفل المنحنى .. أنا فى القاع الآن .. لكنى مضطرة لذلك .. جيمس سوف يجدنى ويفتك بأسرتي. فكرت مرارًا فى أن تقتل نفسها لكنها لم تجرؤ .. ثم إن هذا سيجلب العار على أسرتها .. سوف يعتقد الناس أنها انتحرت لسبب أخلاقى ، ولن يصدق أحد أنها انتحرت كى تفر من غول يطلب الجثث البشرية ..

ليت الأمر ينتهى اليوم ..

لقد انتهى من جثتين .. أعتقد أن استعادة ماديته صارت مؤكدة ..

سوف يطلق سراحى أو يقتلني.. لا مشكلة عندى .. المهم أن ينتهى هذا كله ..

* * *

عند الظهيرة وقف لوسيفر يلقى نظرة على الصحراء الممتدة أمامه ..

الآن حان الوقت ...

وبدأ يتنفس بعمق .. يزفر بأقوى ما استطاع ..

لو أنك رأيت المشهد فلن تفهم ما يحدث .. لا يوجد شىء غريب ، لكنك لو تسلقت لأعلى أو ركبت طائرة لبدأت تدرك أن هناك نوعًا خفيفًا جدًّا من الضباب الأخضر يتزايد .. ينبعث من حول حامل الضياء الواقف ...

ضباب أخضر رقيق جدًّا لا تلاحظه إلا بمشقة بالغة ...

بدأ الضباب يتحرك .. ينتشر ... يتغلغل .. يزحف على كل مكان ..

لم تدون الأرصاد أى شىء ، كما أن المسافرين على الطرق لم يلحظوه لأنه كما قلت لك غير كثيف ... ربما له رائحة عطرية بسيطة جدًّا لا يلاحظها إلا من أوتوا أنوف كلاب .. فما عدا هذا بدا كل شىء هادئًا ..

هذه الطريقة تعرفها الشياطين منذ زمن .

هذا الضباب يزحف فى كل مكان .. يتسلل ...

والأخطر أنه يعرف .. يتلصص ...

عندما تستنشق أنت هذا الضباب فإن عقلك يبوح بأسراره سريعًا .. ولم يكن لوسيفر يريد أسرار البشر التافهة .. كان يريد إجابة عن سؤال واحد فشل المتسولون وفشلت الذئاب وفشلت الديدان فى أن تجيب عنه :

أين ذهب رفعت إسماعيل ؟.. أين الكتاب ؟

الضباب ينتشر ..

يستنشق الناس الواقفون عند محطات الحافلات .. فى السوق يشمونه .. فى الزحام .. فى أفنية المدارس .. وبدأ يزحف ببطء نحو الإسكندرية ونحو بلدان أخرى عديدة ...

عندما يأتى المســاء ستكون كل الخــارطة تحت سيطرة هذا الضباب ..

وسوف يعرف ...

* * *

لكن هناك أشخاصًا لم يشموا الضباب أصلاً ..

عندما ملأ الضباب حديقة المصحة ، كنت أنا فى غرفتى أعانى الحمى وأهلوس .. وكانت الغرفة مغلقة ...

وعندما بلغ الضباب تلك الضاحية الهادئة .. كان هشام الصغير يعانى الحمى وقد أغلقت عليه الغرفة ، وكان يحاول جاهدًا أن تصمد معدته أمام منقوع الجنزبيل الذى ملأها ..

كان هذا حظًّا عجيبًا ، فلو لمس الضباب أحدنا لانتهى البحث فى لحظة ..

لكن هناك آخرين قدموا للضباب إجابات ممتازة ..

-2-

لم يتلق لوسيفر إجابات ..

للمرة الأولى بدأ يقلق .. لربما هلك رفعت فعلاً وسره معه ؟.. ربما هو تحت الأرض الآن ؟.. لكن الذئاب لم تجد شيئًا .. لقد نبشت معظم القبور الحديثة .. بالذات فى قرى الشرقية لأن رفعت سيدفن هناك ..

هل رفعت فى جانب النجوم ؟.. كان لوسيفر سيعرف على الفور ..

* * *

مها وابنتها كذلك كانتا قد أغلقتا البيت عليهما .. وبالطبع كانت النوافذ موصدة منعًا لتسلل البرد والثعابين ...

كانت مها خائفة من الديدان والذئاب والمتسولين فى كل مكان ، لذا منعت الفتاة من الذهاب للمدرسة وأمضت المرأتان اليوم فى البيت .. أجرت الفتاة مكالمات هاتفية كثيرة تجسست الأم عليها

جميعًا .. الوضع الأمثل بالنسبة لها هو أن تسجن الفتاة مقيدة بالسلاسل فى غرفتها للأبد وتطعمها حتى تموت .. لا يوجد حل آخر للسيطرة على فتاة مراهقة ..

ـ « أنا مطلقة .. مطلقة .. هل فهمت ؟.. ينتظرون خطأ واحدًا لى كى يتخرصوا .. »

هكذا ملأ الضباب الشرفة وراح يتسلل حول الجدران ويتلمس النوافذ ، لكنه عجز عن الدخول ..

لكن لا تقلقوا ..

لن تظل المرأتان هنا للأبد .. حتمًا سوف تخرج واحدة منهما وعندها سوف تستنشق الضباب .. وفى اللحظة التالية سوف يعرف لوسيفر أن رفعت كان هنا ....

* * *

لكن كراولى شعر بذلك ...

كان فى تلك الشقة يتهيأ للذهاب إلى المتحف المصرى للقاء سوسن وضحيتها التالية .. سوف يعـود بهما للشقة ويواصل الاغتذاء ..

الحقيقة أنه استعاد قسطًا كبيرًا من كيانه المادى ، حتى أنه بدأ يفكر فى أنه بحاجة إلى امرأة .. يبدو أن سوسن ستكون صالحة له . هو فى حياته لم يترك امرأة وشأنها ويبدو أنه سيعود إلى اشتهاء النساء من جديد ..

تأمل نفسه فى المرآة فرأى صورته ضبابية شفافة .. يحتاج إلى لمسة أخرى تعيد له رونقه الكامل ، وعندها سوف يظهر فى الصور الفوتوغرافية ويصير له ظل واضح ...

ألستر كراولى .. أكثر الرجال شرًا .. الوحش .. شبيه الشيطان .. أخطر ساحر فى التاريخ .. مؤسس مذهب الثليما وصاحب كتاب القانون .. هو ذا ..

كان كراولى قد تخلص من بقايا الجثتين السابقتين بطقوس سحرية معينة ، وهكذا ظفرت بهما شياطين العالم السفلى ..

مشهد رهيب هو عندما ينشق البلاط فى الشقة وتبرز تلك الكائنات الرغوية المخيفة وتبحث عن لحم .. ثم تلتف على بقايا الجثة وتسحبها إلى تحت ، ثم يلتئم البلاط من جديد ..

لو رأت سوسن هذا المشهد لماتت أو فقدت وعيها رعبًا ..

الآن يجب أن يضع خطة العثور على الكتاب. عندما يجد الكتاب لن يستطيع لوسيفر أن يؤذيه لأن الكتاب له سلطة مطلقة تحمى من يحمله .. لو عرف كولبى الأحمق هذا لأبقى الكتاب معه وما كان أحد ليؤذيه .. لكنه لا يعرف ..

من الطبائع البشرية أنك تخفى الذهب تحت صخرة ولا تبقيه معك .. لا أحد يتوقع أن إبقاء الذهب معك يحميك ويحمى الذهب .. لهذا يجب أن يتوقع أن الكتاب ليس مع كولبى ولا مع ذلك المصرى النحيل الأصلع الذى جلس يستجوبه .. وبرغم هذا هما يعرفان مكانه بالتأكيد ..

ترى أين كولبى ؟..

لم يكن قد عرف حتى هذه اللحظة أن كولبى مات ..

فتح الباب وخــرج من الشقة .. هنــا شم الرائحة العطرية الخفيفة ..

ما مصدرها ؟..

نظر إلى الهواء الذى يحمل لمسة خضراء لا تميزها سوى عين حساسة جدًّا .. هذا ضباب .. ما مصدره ؟

ثم بدأ يتوتر وقد تذكر هذه الطريقة .. إنها واردة فى كتب السحر العتيقة وقيل إن بلفاجور يمارسها .. الضباب الذى يتسلل إلى كل مكان ويملأ كل شىء ويعرف ما يدور فى الأذهان ، ثم يعود ليخبر لوسيفر بالحقيقة كلها...

ما كان يتصور أن رغبة لوسيفر فى الكتاب يمكن أن تبلغ هذا الحد .. هذا عمل ضخم خطير .. ولوسيفر بالفعل ليس خصمًا هينًا ..

ساعدنى يا عيواس ..

ـ « افعل ما تريد .. هذا هو القانون ..! »

امنع هذا الشيطان من العثور على .. لا تدع هذا الضباب يدخلنى ..

عيواس .....

بالفعل بدأت هالة تتكون حول كراولى .. تحميه من لمسة الضباب .

الآن هو فى سلام ، لكنه يعرف أن الضباب هناك فى الخارج .

لوسيفر الآن يعرف ما تعرفه الفتاة وسوف يخمن كل شىء بسهولة . الفتاة على علاقة برجل بريطانى يلتهم الموتى ويطلب منها أن تحضر له المزيد .. رجل بريطانى يحب المتحف المصرى . لا يوجد شك فى الأمر ... سوف يجده حتمًا ..

لا يمكن أن يعود للقاء الفتاة ... لن يبقى فى هذا البيت بعد ذلك لأن لوسيفر سيأتى قريبًا جدًّا .. ربما خلال دقائق ..

المشكلة أنه ضـعيف .. ما زال لم يكسـب ماديتـه المفقودة بعـد ...

هكذا وبلا تردد عاد للشقة ليأخذ شيئًا ثم هبط فى الدرج ..

اتجه إلى شقة فى الطابق الثالث .. شقة يعيش فيها شاب أعزب رآه عدة مرات من قبل. دق الجرس فى إلحاح ..

انفتح الباب وظهر الشاب وهو يجفف وجهه بمنشفة ويلبس الفانلة الداخلية وسروال منامة ، فلما رأى كراولى قال ضاحكًا :

ـ « خيرًا يا خواجة ؟.. هلا تناولت طعام الغداء معـــــ ...؟ »

قبل أن يكمل الجملة اقتحم كراولى الشقة ، وهوى على رأس الشاب بمطرقة كان يحملها ، فسقط الأخير والدم يسيل من رأسه .. لا نعرف هل مات أم لا ولا نجد فارقًا كبيرًا ..

أغلق كراولى الباب وزحف ليجثم على الفتى ويواصل عملية استعادة حالته المادية .. صوت اللعق والقضم هذا ...

فرغ من عمله وازداد قوة ، فاستدعى شياطين العالم السفلى ..

راح يجفف وجهه بمنشفة الشاب ، بينما البلاط ينفتح .. تخرج تلك المسسات الرغوية .. صوت تجشؤ ثقيل .. ثمة شىء يغلى تحت الأرض ويفور ويمور ....

وببطء بدأت أشلاء الفتى تهبط لأسفل وتختفي ..

ابتسم كراولي من سخرية الموقف. هذا الشاب كان على وشك التهام الغداء والنوم ، ولم يتصور لحظة أنه سيتحول إلى جثة تصطرع عليها شياطين العالم السفلي خلال ربع ساعة ..

شم رائحة حساء الخضر واللحم من المطبخ. لا بأس بأن يتناول هذه الوجبة كذلك فلن يأكلها أحد .. وهو صار بحاجة للطعام بانتظام مثل البشر .. لقد صارت له معدة وجهاز هضمي كامل ..

بعد هذا سوف يفر إلى مكان لا يعرفه أحد .. يجب أن يتم هذا قبل أن يصل لوسيفر اللعين ..

الدائرة تضيق

-1-

عند حديقة المتحف المصرى وقفت سوسن كثيرًا جدًّا تنتظر .

لم يأت جيمس .. تمنت هذا كثيرًا لكنها كذلك كانت ترجو أن تجد تفسيرًا .. ما دام لم يأت فهل لها أن تأمل فى الحرية ؟.. ربما هى تحررت فعلاً ؟

نظرت لها نرمين متسائلة ، فقالت سوسن فى رفق :

ـ « هل تثقين بى ؟ »

ـ « تعرفين هذا يا أبله سوسن .. »

ـ « إذن تعالى معى .. سوف نأخذ سيارة أجرة .. »

ـ « لكنى تأخرت فعـ ... »

ـ « سوف أشرح لأمك كل شىء .. لا تثريب عليك .. هلم .. »

لحقت بها الفتاة المراهقة وهى لا تفهم معنى هذا ..

ألقت سوسن جسدها فى سيارة الأجرة واحتضنت قريبتها وذكرت العنوان للسائق .. غريبة هذه الرائحة العطرية الخفيفة التى تشمها ..

لا تعرف أنها شمت الضباب ... شمته بقوة .. وهو الآن فى رئتها .. يتسرب لخلاياها .. يستجوب خلية خلية كأنه ساحر نكرومانسر يجيد عمله .. يعرف كل شىء .. يرى ما رأته .. يسمع ما سمعته ...

وفى مكان ما من الصحراء فتح لوسيفر عينه المغمضة ... لقد وجد شيئًا ....

عوت الذئاب فى الفلاة وقد أحست بالإشارة ...

« صبوا لنا بعض الدم المختمر ، ولتسمعونا صرخات المعذبين فى أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة فى انتشاء .. إن لوسيفر والحق يقال راض .. »

* * *

تلك الفتاة ..

تلك الفتاة ..

الفتاة الناحلة التى تبدو كصور الملائكة فى رسوم الرافائيليين ..

هذه الفتاة على علاقة بسائح بريطانى يبدو كأنه يقيم فى المتحف المصرى .. هذا السائح اسمه (جيمس ألجروود) ..

سائح يلبس ثيابًا سوداء ويفضل أن يضع بيريه على رأسه معظم الوقت لأنه أصلع ..

ألا تعرفين هذه الملامح يا بلهاء ؟

السائح قال لها شيئًا عن أنه غير مكتمل وطلب منها أن تأتيه ببشر .. وهنا يتكشف سلوكه عن انعدام تام للياقة وآداب المائدة. إنه يلتهم البشر من دون شوكة ولا سكين .. إنه يأكل بفمه .. إنه يطلب المزيد ....

لا فكاك من هذا السائح كما هو واضح ..

ثمة دليل آخر كان يجب أن يتنبه له ..

هناك سائحة ألمانية تسرب لها الضباب ... التقطت بعض صور فى المتحف المصرى .. لاحظت أن سوسن هذه لا تقف مع أحد ، برغم أنها متأكدة من أنها كانت تقف مع رجل بريطانى ضخم قوى النظرات ..

هذا الرجل لا يظهر فى الصور ...

لكن لماذا لم يصل له لوسيفر ؟

الإجابة سهلة .. من الصعب على نصابين أن يخدعا بعضهما .. ومن الصعب على لصين أن يسرقا بعضهما .. كراولى يعرف بعض الحيـل ، وهو بالتأكيد قـادر على أن يهزم الضباب فلا يخترقه .. الثليما كتاب قوى ، لكن ليس بقوة كتاب الأسرار طبعًا ..

سوف يبدأ البحث من أول خيط .. وهذا الخيط هو تلك الفتاة ..

* * *

لماذا تلاحظ النساء كل شىء لكنهن لا يلاحظن قطرات الدم على الدرج فى الطابق الثالث ؟

دقت سوسن باب شقة جيمس فى الطابق الرابع كثيرًا .. لا أحد يرد ..

هنا لاحظت أن الباب موارب وليس مغلقًا .. لقد نسيه كراولى وهو يغادر المكان ..

مدت يدها وفتحت الباب .. ظلام ..

دخلت بينما الفتاة المذعورة نرمين لا تفهم . منزل من هذا ؟.. ما علاقة أبلة سوسن به ؟ دخلت سوسن الشقة بحذر ثم راحت تنادى :

ــ « جيييمس !... جيييمس ! »

لو لم يكن هنا ينتظر فهى حرة .. حرة فعلاً ...

قالت نرمين فى ذعر :

ــ « هناك رائحة معينة لا أحبها .. »

بالفعل .. لا تنسى يا فتاة أن جثتين قد مزقتا هنا .. ولم يكن هذا ببعيد ..

أنا حرة . حرة .. سوف أغلق هذا الباب اللعين للأبد ، ولن يفتحه أحد ثانية .. سوف أهرب .. سوف أتحاشى الأسئلة وأعرف كيف أتملص من الاتهامات .. لن يكون هناك قتلى بعد ذلك .. أنت قد نجوت يا نرمين ...

فجأة وجدت نفسها ترتطم بالجدار وصرخت نرمين بشدة ...

-2-

الصوت الببرى القوى والنظرة النفاذة .. بذلة السهرة السوداء الأنيقة وقلادات عديدة على صدره .. كل شىء فيه أسود سواء عيناه أو شعره أم ثيابه أم نظراته أم أفكاره .. أسود ... وبرغم هذا هناك جاذبية خاصة فيه لا تدرى مصدرها ..

يتكلم بإنجليزية ثقيلة فعلاً لكنها مفهومة واضحة مزلزلة. كان قد ثبتها بذراع واحدة إلى الجدار تمامًا ووجدت أنها لا تقدر على التنفس تقريبًا ..

ثم أنه نظر إلى الفتاة المراهقة نظرة نارية وهمس :

ــ « انصرفى ولا تنظرى وراءك أبدًا ! »

ــ « ولكن .. »

ــ « لا أكرر أوامرى مرتين .. »

لم يكن يمزح أو (يبلف).. شىء فى داخلها أخبرها أنه لا يمزح ولا يمكن أن يمزح ... هذا رجل يعنى ما يقول ..

لا تعرف كيف ولا متى ألقت بحقيبتها على الأرض ، واندفعت تركض فى الشارع وهى تنشج .. قدماها أسرع وأمضى من تفكيرها ...

تتخلى عن أبلة سوسن ؟.. لكنها أقنعت نفسها أنها تجلب النجدة لها. لن تفيدها لو ماتت معها ..

هكذا خرجت إلى النور وراحت تجرى ..

فى الوقت نفسه نظر لوسيفر إلى سوسن بعينيه الناريتين.. كان يضع يده على عنقها فى حزم ، وهذه اللمسة البسيطة كانت تبقيها مسمرة للجدار :

ـ « أين جيمس ألجروود ؟ »

قالت وهى تختنق تقريبًا :

ـ « لا أعرف .. لم يأت لموعدنا فى المتحف المصرى ولم أجده هنا .. من أنت ؟ »

ـ « أين جيمس ألجروود ؟ »

كان يتكلم فى هدوء أقرب إلى الرقة واللطف ..

كان يعرف أنها صادقة .. هى لا تعرف فعلاً أى شىء عنه . بل هى لا تعرف أنه كراولى ولا تعرف كراولى أصلاً. هذه ضحية بائسة وجدت فى المكان والزمان الخطأ ... برغم هذا راح يتلصص على أفكارها . تسلل إلى عقلها وراح ينقب فى جشع عن أى معلومة ...

لماذا يستجوبها إذن ؟..

لأنه يخاف أن يكون كراولى قد زرع فى عقلها ذكريات خاطئة .. هنـــاك أشياء من الأفضل أن تنتزع شفهيًّا من الشخص نفسه وليس بالتنقيب فى عقله ..

لا شك أن كراولى رأى الضباب وشمه .. ولا شك أنه احتمى بعيواس ....

ـ « أين جيمس ألجроود ؟ »

لم تكن تعرف ...

من المؤكد أنها لا تعرف ..

كان ينقب فى عقلها بلا هوادة ...

يقتحم هذا النسيج ويمزق هذا الحاجز من الخلايا العصبية .. يثقب هذا الركن .. يبدو أنه كان فظًّا أكثر من اللازم ..

رأى الدم يسيل من طاقتى أنفها ثم من أذنيها... ثم تصلبت عيناها وبدأ الدم يحتشد تحت غشاء الملتحمة. خفف قبضته قليلاً لكنه أدرك أنه بالغ فى التنقيب فى مخها .. لقد مزقه تمامًا كأن قنبلة انفجرت فيه ..

هكذا فتح يده فتهاوت على الأرض كثوب فارغ سقط من على الحبل ....

دجاجة بلهاء تم إقحامها فى قصة لا علاقة لها بها .. كراولى قاس فعلاً ، لكن لوسيفر أقسى بالتأكيد ..

المضحك أنها بدأت قصتها بميل شبه عاطفى نحو كراولى . نهاية غريبة لقصص الحب الرومانسية ، وفى هذا درس أخلاقى لا بأس به : لا تقعى يا صديقتى فى حب الرجال صلع الرءوس الذين يحبـون رسم تماثيل المتحـف المصرى .. بالذات من لا يظهرون فى الصور الفوتوغرافية منهم .

هذا درس أخلاقى ممتاز لكنها لن تستوعبه للأسف ..

وضحك من سخرية الموقف وهو يغادر الشقة المشئومة ...

أين الفتاة المراهقــة ؟.. على الأرجح هى بلغت الصين فى ركضها ، ولسوف تعود .. لكنهم لن يفهموا أى شىء .. جثة تفجر مخها .. بلا تفسير ..

* * *

فى هذا الوقت تقريبًا أرادت زوجة البواب ــ أم هشام ــ أن تعد بعض العجين ..

بحثت عن الطست الموجود فى الغرفة ..

كان هشام ما زال تحت تأثير الحمى ، لكن الزنجبيل بالعسل بدأ يصنع المعجزات معه ..

وجدت الطست وفوقه ملاءة وخرق تغطيه ، فلما فتحته وجدت كيسًا بلاستيكيًا .. عندما تتحسسه تدرك بسهولة أنه يحوى كتابًا .. لكن أى كتاب هو ؟

راحت تعبث فى الكيس لتخرج بعض أوراق البردى .. عليها رموز غير مفهومة تمامًا. هذا الكيس ليس سوى كيس قمامة .. لا قيمة لهذا الشىء ..

خرجت من الغرفة ومن البناية ، واتجهت إلى الخرابة .. فتحت ذراعها وطوحت بهذا الكيس إلى أبعد مكان ممكن .. تقريبًا لم يبتعد كثيرًا عن المكان الذى وجده فيه هشام أول مرة لكنها لا تعرف ذلك ..

ثم عادت إلى الغرفة وبدأت تضع الدقيق فى الطست وتصب الماء عليه ...

البحث

-1-

عيواس .. أنا بحاجة لعونك ..

يجب أن تساعدنى ...

وفى هذه اللحظة دخل المهندس المصرى الشاب حاملاً الخرائط .. تعثر فى السجادة فكاد يقع ، لكن كراولى مد يده القوية ليقيله ..

قال المهندس بالإنجليزية وهو يحملق للأمام بنظرات ثابتة :

ـ « كل شىء هنا يا مستر ألجرووود .. »

ـ « هذا جميل .. »

كان التنويم المغناطيسى فعالاً ... والأجمل أن الضباب لن يجد شيئًا مهمًّا أو لافتًا للاهتمام فى عقل من نام مغناطيسيًّا ..

أنت خمنت طبعًا أننا فى إدارة المساحة حيث كل خرائط القطر المصرى ، وخمنت أن كراولى هنا وأنه استطاع أن يخضع هذا المهندس الشاب لإرادته بالكامل .

ــ « اجلس .. »

تقدم المهندس بخطوات مترددة قليلاً وجلس .. لقد تأكد من أن أحدًا لن يقتحم المكان. مد كراولى يده وأخرج بندولاً من جيب سترته السوداء .. ثم فرد خارطة القطر المصرى على المنضدة ووضع البندول فوقها .. أخذ نفسًا عميقًا ثم راح ينتظر .. يمرر البندول فوق كل أجزاء القطر بانتظار النتيجة .. فجأة بدأ البندول يهتز فوق شمال مصر ..

ــ « أريد خارطة أكثر تفصيلاً .. »

وضع المهندس خارطة أدق تظهر شمال البلاد .. ومن جديد عاد كراولى يحوم بالبندول فوق الخارطة .. وفجأة بدأ البندول يتأرجح فى إصرار ...

عيواس .. ساعدنى .. اجعل هذا البندول دقيقًا ...

ــ « أريد خارطة للقاهرة الكبرى .. »

وبدأ التنقيب فوق خارطة القاهرة الكبرى والضواحى .. لا شك أن الاهتزازات واضحة جدًّا فوق حى (....) .. الكتاب فى المنطقة المدعوة بـ (.....) .. لا شك فى هذا ...

ـ « هل عندك خارطة لحى (......) ؟ »

بحث المهندس حتى وجد خارطة معقولة للحى الراقى ووضعها أمام كراولى ..

من جديد ظل البندول ساكنًا فوق الخارطة حتى بلغ نقطة معينة وبدأ يتأرجح بقوة .. كانت البيانات بالعربية ، لذا طلب كراولى من المهندس أن يترجمها ..

أخيرًا دون البيانات فى ورقة ..

الكتاب موجود فى هذه النقطة بالذات .. خلف تلك البناية .. لا شك فى هذا ..

لا شك أن لوسيفر يبحث بطرقه الخاصة ، لكنه عصبى ولا يريد أن يعود للأساليب العتيقة مثل البندول. لكن كراولى كان شديد الإيمان بالبندول وعصا الماء Dowsing لذا قدر أنه سيصل للهدف بسهولة وسرعة ..

سيجد الكتاب فإذا وجده لن يقدر لوسيفر على عمل شىء ..

فكر قبل أن ينصرف فى أن يحطم عنق المهندس ، ثم فطن إلى أنه لا داعى لذلك .. المهندس نائم مغناطيسيًّا ومسالم وقد أطاع الأوامر .. ولن يتذكر أى شىء عندما يفيق ، فلماذا تقتله ؟.. لقد صار الشر عـادة لديك فعـلاً .. لكن يجب أن يكون شرًّا براجماتيًّا يجلب منفعة ما .. لو لم يفعل فإنه شر عشوائى كشر الضباع ، وهو يجعلك أكثر حيوانية ..

هكذا قرر أن يترك المهندس هذه المرة ..

* * *

أما عن لوسيفر فكان يواصل تلقى الأخبار ..

هذه المرة جاء النبأ من الإسكندرية ..

واحد آخر استنشق الضباب فلم تعد لديه أسرار ...

هناك طبيب نفسانى اسمه (سامى) قابل فى إحدى المصحات رجلاً يقسم سامى أنه هو رفعت إسماعيل ..

هه !.. هذا غريب !..

المشكلة أن هذا الرفعت فاقد الذاكرة ولا يعرف هو نفسه إن كان كذلك أم لا ..

هل يكون هذا هو الجواب ؟ الفانى فقد ذاكرته وهكذا ذاب تمامًا فلم يعد أحد قادرًا على العثور عليه ... لا .. ثمة رائحة زنخـــة هنا وهـــو يشمها .. لا شك أن كولبى اللعين له دور فى هذا ... لقد مسح ذاكرة رفعت تمامًا فلم يعد يدرك أى شىء .. لا يعرف من هو ولا ماذا يملك .. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للاختباء فى الزحام ..

الآن لم تعد الأمور بذات التعقيد ، نظرة واحدة على وجه ذلك النزيل وسوف يعرف إن كان هو رفعت فعلاً أم لا ..

هل الكتاب اللعين فى الإسكندرية ؟

ثمـــة احتمال بســـيط أن يكون رفعت قد تخلص منه .. ربما فى البحر أو تحـــت الأرض لأن حرقه مستحيل ... لكن هذا احتمال ضعيف لأن رفعت ذكي.. ذكى ويعرف أن الكتاب سوف يفتدى حياته .. لذا لابد أنه احتفظ به .. أين ؟.. هل فى تلك المصحة ؟

لكن رفعت فاقد الذاكرة . فهل ضاع الكتاب ؟.. هل صار له مالك جديد ؟...

الأمر محير فعلاً. حتى لوسيفر العجوز نفسه قد يجد نفسه حائرًا عاجزًا عن اتخاذ قرار صحيح ..

يجب أن يرى بنفسه ..

-2-

كنت أنا فى غرفتى أستعيد صحتى من تلك الإنفلونزا اللعينة ، وأحاول قراءة كتاب أعطانيه أحد النزلاء .. هذا الكتاب يتحدث عن أمور مثيرة وغريبة .. اسمه (أرواح وأشباح) لأنيس منصور . الحقيقة أننى فقدت ذاكرتى فعلاً لكن ظلت هناك أرضية أساسية متماسكة من المعلومات . فمثلاً لم أنس من هو أنيس منصور .. أعرف أهم كتاب ومفكرى العالم وأعرف أسماء اللوحات الفنية والمقطوعات الموسيقية .. أتكلم الإنجليزية وأفهمها وبعض الفرنسية .. فقط لا أذكر من أنا ولا ماذا أعمل ..

كان أنيس منصور يتحدث عن أشياء غريبة ، مثل أن تصحو المومياوات أو تجول الأشباح فى البيوت الفارغة .. كلام مخيف ولا أصدقه على كل حال .. لا أعرف من أين يأتون بهذه الحكايات ؟

فجأة شعرت بتيار هواء قوى ..

انفتح الباب إذن ...

رأيت ذلــك الرجل فــارع القامة . الرجل الذى أرسمه فى رسومى بإلحاح لا يتوقف .. الرجل الذى يلبس السواد وقلادات ثقيلة وله شعر أسود فاحم وعينان سامتان ..

هتف بالإنجليزية وبصوت كأنه ببر يحلم تحت شجرة فى الملايو :

ـ « إن لم يكن هذا رفعت إسماعيل صديقى العتيد .. إننى بك أسعد ولك قلبى يطرب والحق يقال .. »

يستعمل نفس الاسم الذى قاله د. سامى ..

نهضت من الفراش ووقفت جواره لأتكلم .. لكنى وجدت يدًا قوية تضغط على معصمى وتجذبنى .. قال لى وهو يحملق فى عينى :

ـ « سوف تتكلم .. هذا ما ستفعله .. »

فجأة شعرت بأن إصبعًا يتوغل فى عقلى .. نوعًا من التنقيب يتم هناك ..

هزنى بقوة فرأيت ضوءًا أزرق غامضًا وقدرت أننى سأفقد الوعى أو أموت ، لكنه ثبتنى إلى الجدار كما يعلقون اللوحات فوجدتنى عاليًا جدًّا .. وفجأة ....

أنا رفعت إسماعيل ..

الآن أتذكر كل شيء ..

كراولى وكولبى ..

الفرار .. تخبئة الكتاب .. المطاردة عبر الأجيال ..

أيامى فى هذه المصحة ..

د. سامى .. د. محمد شاهين .. ماجى .. كاميليا .. عزت .. كفر بدر ..

أنا هو أنا .. لم تمت ذاتيتى بعد ..

كولبى قد وضع أثقالاً من الغبار فوق ذاكرتى ، ويبدو أن لوسيفر أزالها بنفخة واحدة من فمه ...

لكننى الآن فى أسوأ وضع ممكن وأنا هنا فى قبضته .. يبدو أنها النهاية فعلاً ...

أسوأ وضع ممكن تخيلته فى حياتى هو أن أجد نفسى معلقًا ووحدى مع لوسيفر .. والأهم أنه لا يبدو راغبًا فى المزاح. طريقة السيد الظريف المهذب هذه قد زالت تمامًا ..

ـ « لقد عادت ذاكرتك أيها الفانى .. فى ذاكرتك وفى دهاليز عقلك أبحث عـن إجـابة ، لكن صبرًا .. لا أريد لك أن تنفجر الآن .. لا أريد لمخك أن يسيل من أنفك وأذنيك ... أنت واهن كعهدى بك .. »

كان ينقب هناك ..

كنت أشعر به .. كل دهاليز عقلى التى لم أكن أعرف أنها موجودة ، شعرت به يجول فيها .. شعرت بأبواب تتحطم .. سمعت خزائن تفتح .. لم يعد من سر لدى لم يعرفه .. كان يتصرف كلص ملول يريد الانتهاء سريعًا لذا راح يهشم كل شىء يفرغ منه ..

قال لى فى النهاية وبعد عذاب طال :

ـ « الحق أنك لا تعرف موضع الكتاب بعد .. لكنى لا آمن أن يكون كولبى السقيم قد حصن ذكرياتك بشيء .. فتكلم .. »

قلت وأنا ألهث :

ـ « يمكنك قتلى لكنى فعلاً لا أعرف أين الكتاب .. هناك لحظة انقطعت فيها ذكرياتى .. »

قال فى هدوء وبلهجته الشرق أوروبية الكثيفة :

ـ « أرى أنك صـادق .. خيـط ذكـرياتك ينقطـع عنـد .. عند .... »

* * *

خرجت مها قريبتى من الحمام وهى تجفف شعرها الذى غسلته وقالت بصوت خشن عال لابنتها :

ـ « أعدى المائدة يا فايزة .. طلبت منك هذا ثلاث مرات يا (زفتة) .. أنت .... »

وفجأة توقفت كمن داس على سلك كهربائى من أسلاك الفولت العالى ..

فجأة هناك اجتماع من الأشخاص الظرفاء فى دارها ..

صرخت فى ذعر :

ـ « رفعت ..!.. كيف دخلت ؟.. ومن هذا الرجل الغريب ؟ »

لحظة الحقيقة

-1-

كنت أقف جوار د. لوسيفر .. ألبس المنامة طبعًا وقدماى فى الخف ، بينما لوسيفر بقامته الفارعة المهيبة يضع يده على كتفى ويضحك تلك الضحكة الشيطانية ..

طيران ؟.. بالطبع لا .. لسنا فى السيرك القومى هنا. كل ما أعرفه هو أننا صرنا هنا فجأة ..

هذا نموذج للانتقال الآنى يصلح للتدريس إذن .. كنا فى المصحة بالإسكندرية وفجأة صرنا فى بيت مها ..

أما عن مها فقد وجدت فرصتها فى الصراخ :

ــ « رفعت !... أنت هنا فى بيتى بثياب النوم ومعك رجل آخر !.. انصرفا !.. أنا مطلقة وسوف تدمر سمعتى !.. يا لك من حيوان ! »

قلت لها وأنا أحاول اقتناص السخرية فى الموقف :

ــ « أقدم لك د. فرانتس لوسيفر .. من المجر .. لا يفهم إلا الإنجليزية والمجرية .. »

نزعت خفها ولوحت به مهددة وهى تشير للباب :

ــ « أنت وهو .. إلى الخارج .. لا أعرف كيف دخلت لكنك ستخرج حالاً وإلا مزقت هذا على رأسيكما .. وهذا الكتاب اللعين الذى .. »

التقط لوسيفر الكلمة مع أنها قيلت بالعربية ، وقال بصوته العميق المخيف :

ــ « الكتاب .. هذه نقطة ممتازة .. »

قلت لها صارخًا :

ــ « مها .. الكتاب .. هاتى الكتاب حالاً .. إن حياتنا تتوقف عليه... »

فى هذه اللحظة ظهرت فايزة قادمة من المطبخ وهى تحمل صحفة عليها طعام العشاء ، فلما رأت هذا الموكب صرخت وأسقطت كل ما كانت تحمله ..

قال لوسيفر باسمًا :

ـ « والعذراء الحسناء هنا .. الحق أن الشمل قد اكتمل وإننى لمشوق .. »

فجأة رأيت فايزة معلقة من قدميها بحبل.. حبل ليفى لا يتعلق بشيء يلتف حول قدميها ... وكان وجهها يوشك على لمس الأرض فعلاً ... ثم من مكان ما ظهرت الفئران .. فئران عديدة شعثاء شرسة المنظر ، وقد راحت تصدر أصواتها الشنيعة وتحاول الوصول للوجه .. الوجه الذى ظل على ارتفاع أربعين سنتيمترًا عن الأرض .. لو جاء فأر يجيد الوثب أكثر أو تسلق فأران على كتف بعضهما لمزقا وجهها .... بالطبع سوف يأتى فأر يجيد تسلق هذه الضفيرة ..

كان المشهد أقوى مما تتحمله أعصاب مها خاصة أن هناك فئرانًا فى القصة .. لو كان ما يحاول تمزيق ابنتها أسودًا لاستطاعت أن تفكر بهدوء .. ثم أنها لم تر من قبل حبلاً يتدلى فى الهواء بلا شىء يعلقه ..

ما زال يتسلى .. سوف يستعمل بعد هذا أساليبه المألوفة مثل الزيجول الذى يلتهم طبقات الجلد ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة

حتى آخر لحظة ... الريموزا الذى يتم إدخاله فى فم الضحية .. وديدان الناكاخ التى تقتحم الرأس من الأنف ، وتشق طريقها فى جمجمة الضحية حتى المخ مدمرة كل شىء تقابله .

قلت له متوسلاً :

ــ « لوسيفر .. نعرف أنك قادر على التفتيش فى العقول .. لا حاجة بك للتعذيب .. لماذا تعذبهما إذن ؟.. يكفيك أن تعرف ما تعرفان عبر دخول عقليهما.. ثم أننى أنا عدوك الوحيد هنا .. تعامل معى أنا .. »

وضع يديه فى خاصرته ووقف مطرقًا فى منتصف الصالة كأنه مهموم وقال :

ــ « لأنك لم تتعلم أيها الفانى أن بعض العقول تزيف أفكارها وتخدع القارئين .. خير النتائج ما اعتمد على الاعتراف من شفتين ترتجفان وعينين تدمعان ، وفى الآن ذاته أفتش فى العقل عما يؤيد الكلمات ... إن عقل المرأة يقول لى الحقيقة لكن أريد سماعها منها .. قل لها ذلك .. »

كانت الفتاة قد فقدت الوعى لحسن الحظ ، لكن الفئران بالطبع احتفظت بحماسها القديم ..

نظرت لمها وقلت فى لهفة :

ـ « مها . أين الكتاب ؟.. يجب أن تحضريه حالاً .. »

قالت وهى ترتجف :

ـ « أنت وكتابك !... لقد امتلأ البيت بالعفاريت والثعابين وكنت أخفيه فى قفص الطيور بالشرفة .. خفت وتخلصت منه .. ألقيت به فى الخرابة .. »

نظرت إلى لوسيفر وقلت :

ـ « عفاريت ؟.. إذن كان بوسعك أن تجد الكتاب عن طريق هذه العفاريت .. »

ـ « تلكم شياطين خاصة بالكتاب ، وتحت إمرتى لا تعمل .. »

ثم أنه مشى حتى الشرفة ففتح الشيش .. ألقى نظرة على قفص الطيور الذى تلوث بالدم والريش ثم نظر إلى الخرابة التى

بدأت تتسربل فى الظلام .... من الصعب أن يجد الكتاب ينتظر تحت الشرفة طبعًا ..

بالطبع أنا أعقل من أن أحاول مهاجمته من الخلف .. رأيت مها تمسك بيد الهاون التى كانت على النيش فى ركن القاعة ، وعرفت من نظرتها ما تنتويه .. أوقفتها بإشارة من يدي. ليس الوقت وقت ألعاب الأطفال هذه .. نحن نتعامل مع لوسيفر شخصيًّا ...

لو كانت يد الهاون تحل مشاكلى فأنا إنسان سعيد فعلاً ..

المشكلة هى أننى لا أعرف ما ينوى عمله ..

أنا إنسان منته لا شك فى هذا ، لكنه سيؤجل قتلى إلى أن يجد الكتاب .. يخشى أن أكون قد لعبت لعبة ما .. أعتقد أننى آخر من سيموت فى هذا الفيلم المخيف ..

المشكلة هى أن السيدة وابنتها ليستا أكثر من ذبابتين الآن .. وأعتقد أنه سيتلذذ بأن يدمرهما فى سادية .. لماذا يفعل ذلك ؟.. ولماذا لا يفعله ؟

كانت الفتاة المعلقة فاقدة الوعى وأمها الصارخة المولولة والفئران .. كل هذا يخبرنى أن اللحظات التالية عسيرة.. لكن .. أنا مندهش لأننى رأيت شخصًا معلقًا من قدميه وما زال فاقد الوعى ، فمن المعتاد أن هذا الوضع يعيد سريان الدم للمخ فيصحو المرء فورًا ....

هنا شعرت بقلق .. ربما لا يوجد دم متدفق لمخ الفتاة أصلاً ، وهذا معناه موت دماغى أو أسوأ .. إن لوسيفر لا يملك ذرة شفقة ...

جاء الحل سريعًا إذ رأيته يلتفت نحوى ويضحك فى وحشية وقال :

ــ « الكتاب فى هذا القفر أيها الفانى .. والخنزير كراولى يتقدم نحوه الآن بالذات !! »

-2-

قبل هذا بعشر دقائق تقريبًا ، كـان المشهد قاسيًا فى غرفة البواب ..

لقد صحا هشام من نومه ومن الحمى .. فوجئت به أمه ينهض مسرعًا كالملسوع ، وعندما مدت يدها له أزاحها بقوة .. ركض نحو الطست لكنه لم يجده ..

كان الطست يستند إلى الجدار فى محاولة لتجفيفه بعد غسله .. لقد انتهت من العجين كما تعلم ..

صاح الصبى فى ذعر وبصوت لم يخرج منه من قبل :

ـ « **أين اللفافة ؟.. أين الكتاب ؟** »

قالت فى دهشة :

ـ « تخلصت منه فى الخرابة .. هل هو مهم لك ؟.. »

فى اللحظة التالية التقط شيئًا ثم فر من الغرفة تحت الدرج. لم تر أمه قط هذه النظرة القاسية الباردة الحديدية المسنة فى عينه ..

الصبى ذو العشرة الأعوام صارت له ملامح رجل رأى العالم وجابه من المحيط إلى المحيط وعاش كل العصور .. وجه يحمل كل تعاسة وقسوة المعرفة ..

ـ « انتظر لحظة !.. أنت مريض ! »

لكنه كان يركض كالذئاب قاصدًا الخرابة .. حافى القدمين منكوش الشعر يلبس ثياب النوم .. وراح يشق طريقه فى الظلام الوليد وسـط التـراب وبقايا القرميـد وأكياس القمامة وبقع المجارى الطافحة ..

هناك تقف الضاحية الأنيقة المترفة ، وهو يركض فى المنطقة التى لا يراها أحد .. المنطقة الواقعة عند مؤخرة هذه الضاحية العظيمة ..

الكتاب .. كتاب الأسرار .. كتاب المعظم ثلاث مرات قد ضاع منه بعد ما وجده .. كيف هذا ؟ وكيف يسمح لنفسه بأن يمرض ويضيع الكتاب ؟

* * *

هذه هى بالضبط اللحظة التى رأيت فيها فايزة تسقط على الأرض بعد ما اختفت اليد الغامضة التى تعلق الحبل .. وسمعتها تسعل وتئن ... إنها حية ...

وتفرقت الفئران مذعورة فأطلقت مها صرخات لا بأس بها ..

وفى اللحظة التالية لم أعد هناك ...

وجدت نفسى فى تلك الخرابة أو القفر كما يقول لوسيفر .. وكان هو يمسك بساعدى ...

الظلام فى كل مكان .. والفئران تركض مذعورة ، واستطعت أن أرى شخصًا يتحرك من بعيد .. شخصًا يمشى فى تؤدة كأنه يفتش عن شىء ما ..

وأدركت من هذه المسافة أنه يمسك فى يده بندولاً .. ينقب عن شىء ما حسب الاهتزازات ...

قال لوسيفر من بين أسنانه ويده تقبض على ساعدى فى عصبية :

ـ « كراولى .. الوحش .. كراولى .. يحاول استكمال الثليما .. لو حصل على الكتاب فلن أستطيع أن أؤذيه .. »

ثم هتف باللاتينية بشيء ما . بعدها صاح :

ـ « يا بنات الليل .. إلى ! »

لم أعرف متى ولا كيف ظهرت هذه الذئاب الشهباء التى انتصب الشعر حول أعناقها .. كانت تأتى من كل صوب فى الظلام وهى تصدر ذلك الزئير الخفيض المرعب ...

مر بعضها جوارنا فأجفلت لكننى عرفت أننى واقف خلف المدفع وليس أمامه .. على الأقل هذه المرة ..

صاح لوسيفر بصوت ارتجت له المنطقة المقفرة :

ـ « كراولى استعاد ماديته .. لكنه واحسرتاه سيفقدها هنا والآن .. (هيك إى يوبيك) !!! »

كان من الذين يضحكون فيطوحون برأسهم للخلف وفكهم للأمام .. كنت أرى هذا المشهد فى الأفلام وأقول إنها ضحكة مستحيلة .. مسرحية جدًا .. لكنه يفعل ذلك ..

ــ « هام يا بنات الليل .. »

وانقض أول الذئاب على كراولى ــ أو ما قال لوسيفر أنه كراولى ــ فصرخ وانتزعه بصعوبة من على كتفه ، لكن الآخر وثب فوقه .. كراولى لم يكن ضعيفًا وقد استطاع أن يطيح بثلاثة ذئاب ، وسحق واحدًا منها تحت قدمه .. هشم عنقه ..

لكن الكثرة تغلب الشجاعة . فى الظلام رأيت الذئاب تطير لتلتحم بالجسد .. أقسم أننى رأيت سبعة منها تنقض على الرجل ...

وفى النهاية أطلق صرخة من يعرف أنها آخر صرخة وتهاوى أرضًا ..

قال لوسيفر فى سادية :

ــ « فان مثل الفانين ، لكنه تعلم بعض السحر فحسب أنه بلغ الخلود .. موتًا يموت .. فى الجحيم .. هذا هو مثواه .. »

ومشى ببطء وسط الأنقاض والقاذورات ...لم يعد مهتمًّا بأن يمسك بى فأنا لن أذهب لأى مكان .. ورأيت الذئاب تتراجع وذيولها بين أفخاذها كأنها أنهت مهمتها وتطلب الإذن بالانصراف ..

ثم سمعت صوت السباب ....

ومن الظلام برز الصبى هشام .. كان يمسك فى يده بسكين ضخمة ، وانقض على لوسيفر وهو يسبه بأقذع السباب ..

* * *

نظرت فى دهشة وذهول إلى المشهد ..

إن الصبى فى حالة توحش غير طبيعية .. لقد راح يطعن فى لوسيفر كأنه يريد أن يمزق ستارًا من القماش يعبر منه لعالم آخر .. ربما مئة طعنة أو أكثر ...

كان يردد بالعربية :

ـ « الكتاب لى أنا يا أولاد الـ (....) .. لن تأخذوه »

بالطبع كان كأنه يطعن الماء .. كل هذه الطعنات بلا داع على الإطلاق ، لكن لوسيفر تصلب .. بدا مهتمًا بشدة ثم انحنى يمسك بالصبى من ساعده ويعلقه فى الهواء.. وما زال الصبى يوجه الطعنات للهواء ..

يبدو أن لوسيفر فهم القصة كلها فى هذه اللحظات ...

كنت أنا أحاول الابتعاد فى هدوء .. لا أدرى إلى أين ..

وفجأة وجدت بقعة الماء الطافح تلك .. وعندما دققت النظر أكثر استطعت أن أرى الكتاب فى الكيس البلاستيكى شبه مغمور حيث رمته زوجة البواب .. لقد كان كروالى على وشك الوصول لهدفه ..

بسرعة انحنيت والتقطت الكتاب فى كيسه المبلل وضممته إلى صدرى ..

كان المشهد شبه سينمائى ..

لقد اتجه لوسيفر نحوى وعيناه تخبرانك بحقيقته : شيطان ... ليس الشيطان بل هو شيطان .. وكان يعلق الصبى من ذراعه.. وعن يمينه ويساره مشت الذئاب نحوى ، والزبد يسيل من بين أنيابها فى وضع تحفز مخيف ...

ــ « هات الكتاب أيها الفانى ، فلربما أتركك حيًّا .. »

لكنى كنت أعرف أفضل ..

الآن أتذكر كلمات الكينونة :

لا تثق فى الأطفال أكثر من اللازم .

احتضن بيت الأفاعى فعساه أن يمنحك الأمان .

الكلمة الأولى صارت مفهومة .. الكلمة الثانية تخبرنى بشيء .. ماذا قصده لوسيفر عندما قال دون قصد : « ألستير كراولى .. يحاول استكمال الثليما .. لو حصل على الكتاب فلن أستطيع أن أؤذيه .. »

هذا يعنى أن الكتاب اللعين المفعم بالأفاعى يحمى من يحمله ..

كان خطأ عمرى أننى حاولت أن أخفيه بعيدًا عنى ، وهذا تصرف منطقى لدى كل من يملك كنزًا ، بينما كان على أن أبقيه معى للأبد ...

الآن لوسيفر يحاول أن يخدعنى .. يحاول أن ينزع الكتاب .. لكن لو كان يقدر لفعل هذا منذ خمس دقائق ولكنت أنا ميتاً ...

قال لى وهو يتقدم :

ـ « تعرف أننى قادر على انتزاعه منك أيها الفانى

ـ « معلوماتى أنك لا تقدر ... ذئابك لن تهاجم .. »

ـ « بوسعى أن أجعل واحدًا من الفانين يقتلك ويجلبه لى .. »

ـ « لن تفعل لأن شياطين الكتاب لا تطيعك ، وهى تحمى حامله .. أما من تكلفه بجلب الكتاب فقد يأخذه لنفسه .. »

كان موقفًا حساسًا معقدًا فعلاً ...

وبدأت أعرف أننى ربحت عندما رأيت الحيرة فى عينيه ..

أنزل الصبى هشام على الأرض فوقف هذا يرمقه فى تحد ..

قال لوسيفر :

ـ « أنت قرأت الكتاب كله وتبدلت .. إن الكتاب هناك فى أعماقك .. بوسعى أن أنتزعه منك .. »

قال الصبى بلهجة شريرة باترة وبالإنجليزية الممتازة جدًّا :

ـ « لن تستطيع لأن الكتاب الذى أحمله فى عقلى هو ضمان سلامتى .. أنت لا تستطيع اختراق أفكارى وبلوغه ، ولسوف يكون عليك أن تطلب منى .. »

صبى في العاشرة ويتكلم هذه الإنجليزية ؟.. ويقـول هذا التهديد ؟.. هذا يوحى بالمس بشدة ..

قال لوسيفر فى غيظ :

ـ « أنت كتاب حى .. لكنك تلقيت الرسالة وحدك .. كأنها كانت مرسلة لك منذ آلاف السنين ، وهذا يعنى أن حياتك ثمينة . هذا غريب لكنى سأعود بك إلى جانب النجوم لأخبرهم أنك أنت

الكتاب والكتاب هو أنت .. سوف تأتى معى لجانب النجوم وتكون ابنًا آخر لى . سوف تحب هذا لأنك قد تبدلت يا صبى .. أما عنك أيها الفانى فاحتفظ بالكتاب .. سوف يعود لى سريعًا جدًّا جدًّا .. »

لم أفهم ..

قال وعيناه تحمران فى شهوة لا شك فيها :

ـ « عندما اخترقت أعماقك وعقلك رأيت ذلك الداء العضال يزحف هناك .. مسكين أنت .. ستموت قريبًا جدًّا وأنت تتعذب .. تتعذب بقسوة .. ما كنت لأقتلك الآن وأضيع لذة مراقبتك وأنت تتوجع .. وعندما تموت سيكون الكتاب بلا صاحب ولسوف أسترده فورًا .. »

وراح يضحك... يضحك بتلك الطريقة المقيتة .....

ورأيته ينحنى فيضم الصبى لصدره ... الصبى الذى سيرحل لجانب النجوم للأبد ....

هل هى نبوءة أم لوسيفر قد رأى بالفعل شيئًا ما ؟؟

ربما هو يكذب ؟

لن أعرف أبدًا إلا ..

إلا عندما أعرف ...

هناك كنت واقفًا بالمنامة والخف وسط هذا الزمهرير .. هناك في الظلام ، أحتضن إلى صدرى الكتاب الذى قررت ألا أتخلى عنه يومًا واحدًا فى حياتى ... ما تبقى منها على الأقل. سوف أثبته بشريط لاصق إلى صدرى .. أقف بينما البرق يشق السماء ثم يدوى الرعد ...

وعندما رفعت عينى لم أر لوسيفر ولا الصبى ولا قطيع الذئاب ...

رحل الكل إلى جانب النجوم وبقيت أنا وحدى ....

وهطلت الأمطار ....

تمت بحمد الله

رفعت إسماعيل مع القراء

أرجو أن نلتقى على خير فى معرض الكتاب إن شاء الله ، فلا تؤثر الأحداث المتلاحقة فى مصر على موعد المعرض. على كل حال سوف أكتفى ببعض المجاملات والمناسبات لأؤكد لك أننى اجتماعى :

1 ـ عن فيس بوك : بالطبع تضخم الفيس بوك وتمدد وصار جزءًا مهمًا من مفردات عالم الاتصال اليوم ، لكن ظل المؤلف عاجزًا عن التعامل معه .. أو هو بصراحة يجد الأمر معقدًا أكثر من اللازم ، وتكفى رسائل البريد الإلكترونى لتحقيق هذا الغرض ببساطة أكثر. تلقى المؤلف دعوات كثيرة جدًّا من أصدقاء محترمين للتعامل مع الفيس بوك .. لديه بالفعل حساب غير نشط أنشأه له ابنه. لكنه يعتذر بشدة لأصدقائه عن عدم التعامل مع فيس بوك بأى شكل .. دعك من أن هذا لن يترك له فرصة لعمل أى شىء آخر فى حياته . أرجو أن تتقبلوا اعتذاره .

2 ـ يهنئ المؤلف أصدقاء الروايات الذين كبروا وبدأ كل منهم يدعوه إلى حفل زفافه .. « يوم الخميس زفافى فى دار الحرب النفسية .. يوم الجمعة زفافى فى دار الحرب الجرثومية » .. إلخ .. هذا يعنى أن جيلاً كاملاً قرأ الروايات وأحبها .. مثلاً حضر المؤلف زفاف القارئة العزيزة المخضرمة د. داليا يونس على زميل دراستها د. على موسى . دعى كذلك إلى حفل زفاف الصديق العزيز أحمد الديب فى الإسكندرية ، لكنه لم يتمكن من الحضور. كذلك دعى منذ فترة على زفاف الصديق العزيز عمرو عز العرب والصديقة داليا ..

3 ـ دعى المؤلف كذلك إلى مسرح البالون حيث عرضت مسرحية عزازيل التى قدمها شباب المنصورة عن رواية الأديب يوسف زيدان الخارقة للعادة. قام بتحويل النص إلى نص مسرحى الصديق أحمد صبرى غباشى ، كما أخرج المسرحية وقام ببطولتها مع فريق ممتاز من الممثلين المتحمسين . ليست لدى الأسماء كلها لهذا لن أذكرها .. راق لى العرض جدًّا ، وراق لى أكثر أن الناقدة الكبيرة نهاد صليحة تحمست له بشدة مع أن تأخر العرض عن موعده ضايقها كثيرًا فى البداية .

4 ــ وما دمنا وصلنا لهنا فماذا يمنع من تهنئة قارئنا العزيز الذى صار مؤلفاً وصاحب منهج فى تحليل التاريخ (وليد فكرى) الذى قدم كتابه الثانى (تاريخ فى الظل) عن دار رواق .. وقد حضر المؤلف حفل التوقيع. كتاب ممتع وجرىء لكن أرى أنه كان يجب أن يسبق كتاب (تاريخ شكل تانى) لأنه يحدد منهج البحث .

5 ــ لابد من تهنئة العزيز أحمد مراد الذى قدم روايته الثالثة (الفيل الأزرق) وهى عمل كثيف شديد التعقيد ، ولا يكشف عن طلاسمه إلا بعد عدة قراءات ، وقد حققت مبيعات عالية جدًّا وصارت حدثًا ثقافيًّا أكيدًا .. أحمد مراد المصور البارع والمخرج ومصمم الأغلفة والأديب يستمر فى تألقه ..

6 ــ أحببت جدًّا كتاب (باط مان) للكاتب الساخر محمود حسيب .. الفكرة مطروقة وهى : ماذا يفعل باتمان لو ظهر فى القاهرة اليوم ؟ وهى فكرة استخدمت فى العميل 3 أصفار وقدمها المؤلف فى (أسطورة بلية) .. إلخ . لكن التناول هنا طازج ورشيق جدًّا . أفضل صيغة لهذا الكتاب هو حلقات سيت كوم تعرض فى رمضان ..

7 ـ من ضمن ما قرأت مجلة بالغة الجدية وفيها جهد مبذول واضح ؛ هى مجلة ميكروفون التى يصدرها مجموعة من الشباب الطنطاوى . رئيس التحرير هو عبد اللطيف الطحان ، وهى من المجلات الطلابية القليلة التى تضيف لك الكثير وتعرف أن عليك الاحتفاظ بأعدادها .. سوف يتكلم عنها المؤلف بتفصيل أكثر فى سلسلة فانتازيا إن شاء الله .

8 ـ قرأت أشياء كثيرة مهمة .. لكن تباعد أجزاء الروايات جعلنى أنسى الكثير .. سننوه فى فانتازيا عن الأعمال الجيدة الأخرى .

د. رفعت إسماعيل

القـاهرة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

• صدر من هذه السلسلة •

رقم الإيداع : 11604
977 - 378 - 232 - 8